نصوص
متميزة

سعد مكاوي

لا تسقني وحدي

رواية

دار الشروق

لاتسقني وحدي

سعد مكاوي

لا تسقني وحدي

رواية

دار الشروق

مجدا في شوق مجدول
من أزل الكون إلى أبده
وطريقي موج موصول
بالبر الكلي وزبده
سعد مكاوي

(١)

ـ أنا كتلة ندم.

ـ أنا شعلة إصرار.

في الصحراء الطاغية رجلان يمشيان في تقدم بطيء غير مطمئن، في مدن تطمس معالمها أشواك عدوانية، وتدب فيها هوام لئيمة لسعاتها قاسية، وتترامى حوله أشجار صبار عجفاء كأنها تماثيل للكآبة.

أحد الرجلين كلماته قليلة ونظرته حزينة، لكنه بعناد مفعم بالإصرار يشق طريقه الصعب تحت شمس الظهيرة الصامدة، وبصبر متمرس يحتمل ثرثرة رفيقه اللوام الدائم الشكوى، ويمتص غضبه الأرعن على الهجرة التي صارت ضرورة حياة.

ـ ضرورة حياة.

ـ نعم.

ـ بعد أن بلغنا من العمر هذه السن؟!

ـ بعد أن اشتكت الأزهار الراسخة في أرضنا لما بدأ زمن النباتات المتسلقة.

صب الرجل الثاني نقمته على كلمات رفيق الطريق:

ـ لا تتحدث عن الضرورة، وقل إنك فشلت في أن تكون شيئا، ولو حتى نباتا متسلقا.

قال الرجل الأول بإصراره الصبور:

ـ ما جدوى صوتك الثاقب وكل هذا الطوفان من الكلام!

ـ ضـرورة حيـاة؟! إننـا لـن نجـد فـي أي مكان آخر تسعى بنا إليه غير ما خلَّفنا وراءنا، فشلنا في أن نذوق صفو الراحة إذ نندلع مع المندلعين.

ـ كل ما خلفناه وراءنا هو خراب الروح وموت العقل، فاصمت وتقدم.

نفض الآخر الشوك عن قدمه:

ـ أنت تتوارى وراء كلمات مبهمة لا لشيء إلا لتستر عجزك، فما من عيب في الأرض التي هاجرنا منها غير ضعف حيلتنا، وما من شيء ينتظرنا في أي أرض تهاجر بنا إليها غير الفشل.

قال الأول وهو يمضي قدما:

ـ حاول أن تريح حنجرتك لتنشِّط مخك، واعلم أن هناك دائما بصيصًا من الرجاء على آخر المدى.

ظهر لهما على جانب الطريق شيخ طاعن في السن، تلمع تحت الشمس رأسه الصلعاء، وتغطي لحيته البيضاء صدره العاري، وتحاكي جمود التمثال جلسته على حجر.

برعونته الدائمة اندفع إليه الرجل الشاكي:

ـ أنت يا شيخ! إلى أين يقود هذا المدق المبهم عبر الرمال؟

تأمل الشيخ في هدوء، بنظرة لعلها عاشت قرابة المائة عام، وظل جامدًا لا ينطق وهو يشمل صاحبه بنظرته العميقة، فشد الرجل الأول صاحبه من طرف ثوبه:

ـ تأدب يا مروان عندما تخاطب حكيما.

خلص الأحمق ثوبه من يد صاحبه بحركة عنيفة:

ـ دعني يا علاء الدين وشأني.

جاء صوت الشيخ رائقا كالنبعة الكريمة:

ـ من أين جئتما؟

قال مروان نافد البصر:

ـ من أرض خير عميم لم يخرجنا منها غير حماقة صاحبي هذا.

تقدم علاء الدين ونطق صوته الأسيف بخشوع:

ـ جئنا يا سيدي من أرض النباتات المتسلقة والقلوب الميتة.

هز الشيخ رأسه ودق الأرض بعصاه الطويلة:

ـ وإلى أين القصد؟

قال مروان في حسرة متفجرة:

ـ إلى الموت يأسا في أرض مجهولة.

لكن نظرة صاحبه استكشفت الآفاق:

ـ إلى أي أرض لا تسودها طفيليات تفترس حياة الأشجار المثمرة.

تبسم العمق الهادئ في نظرة الشيخ:

ـ أعلم أن الذئاب انتشرت في أرضكما إلى عمق الجنوب وأعلنت هنالك الأعياد، وترامى الفساد بعنفوانه، وزحف بشريعته حتى صارت له السيطرة الكاملة على الحياة، لكني أعلم أيضا أنه لا سبيل إلا الاقتحام في المواجهة بغير طاقة روحية فوق العادة.

ـ وما السبب أيها الحكيم؟

ـ لم يعد يقوى على ذلك من بني الإنسان في هذا الركن من الأرض وفي هذا الطور القميء من أطوارهم إلا أصحاب الشوق الجاذب بالزمام.

قال علاء الدين والمرارة تتضح في صوته:

ـ لن أعود إلى وراء، وليكن ما يكون.

صرخ صاحبه وهو يسقط على ركبتيه:

ـ ونمضي إلى أمام؟.. إلى أين؟!

ـ لا بد أن هناك في هذا المدى الفسيح أرضا ترضيني وأرضيها، وأجد فيها قلوبا حيّة تكلمني وأكلمها.

تهاوى مروان على الأرض وهو ينوح:

ـ ولا بد أنني جننت ساعة رضيت أن أكون رفيق طريقك هذا المطموس، وهوامه الشرهة التي تتحرك نشيطة تحت الشمس كما لو كانت تسعى نحو هدف كبير مجهول.

لزم الشيخ الصمت حتى صار كتمثال على قاعدته الحجرية، والآفاق حبلى من أطرافها بأصداء العواء.

وفي الصحراء ينوح الرجل الخوار وهو يغوص بأظافره في الرمال كما لو كان يحفر لنفسه قبرا، بينما يشق صاحبه طريقه الصعب تحت الشمس.

صار الطريق طريقين.

وفجأة سكت عواء الضواري الجائعة، وارتفع صوت الشيخ بنشيد طغى على أصداء العواء والنواح، وأنست كلماته الموقعة علاء الدين المنطلق صهد الشمس الصالبة:

تبددت وحشة الليالي
وأقبلت دولة الوصال
تشربت أعظمي هواكم
فما لغير الهوى وما لي
فما على عادم أجاجا
وعنده أعين الزلال
وحقكم بعد أن وصلتم
بكل ما فلت لا أبالي!

كأن الصحراء تفجرت عيونا.. والصبار الكئيب تفتح عن أزهار كبيرة لها جمال وأبهة.. وانشقت الكثبان عن غزلان آمنة سكت عنها عواء الضواري، وتواثبت حول ماء العيون، وتعانقت رقابها اللطيفة.. وجوارح الطير التي كانت تحلِّق فوق الرمال تنادت إلى هدف وراء الآفاق، وخلت منها سماء حنون بلا غيوم.

وعلاء الدين يمضي قدما، بكل ما فات لا يبالي.

(٢)

مع مولد الليل لفظته مشقة الغوص في الرمال إلى عناء الصعود في الصخور، وأسلمته المساحات الناعمة إلى المكعبات المهيبة.

احتواه الجبل الثاني من المقطم بعد جهاد طويل فتوقف طامعا أن تنتظم أنفاسه، ورأى في حضن الجبل المدينة الأم مبسوطة أمامه، ما يدري أهي نائمة أم يقظانة، فأشاح عنها بوجهه، وعانقت نظرته وحشة الصخور، تحت نجوم بدأت تتوافد من أركان السماء وتتجلى.

غمرت نفسه سكينة لا يدري مأتاها، وتراخى الزمن، وتحطم تحت نعله عقرب.

ومن بين صخرتين عملاقتين سمع فجأة صوتا يصلي صلاة عجيبة:

ـ أين أنا على الطريق والحقيقة لا تزال بعيدة عني، أنا من يصبو إلى نورها بشوق جاذب بزمامي؟.. أين أنا على الطريق ووجداني لا يزال عطشان إلى أن يتكامل فأكون إنسانا حقا، وكفاي ممدوتان للعطايا، وتوبتي لا تزال متضرعة على عتبات الجمال؟

وسكت الصوت فوقع على الجبل صمت ظل فيه علاء الدين ينتفض بسيال خفي يربط ما بين الحياة في عروقه ومسراها الكلي في عروق الكون.

وتأمل الشق بين الجلمودين ووجدانه متهلل فوق العادة، كأنه وتر مشدود على إيقاع أوتار الوجود الكبيرة.

وعاد الصوت ينبثق كالنبعة من بين الجلامد المهيبة:

ـ يا رب اجعل إرادتنا من الأشياء والأسباب لا قشورها بل جوهرها،وانزع لنا كئوسنا لتتوهج أكواننا الصغيرة كالمصابيح الكبيرة، ويصير في وسع كل واحد منها أن يضيء ألف مصباح.

الجبل لم يعد جهما.

حتى العقارب الصفراء الكثيرة التي كانت تتحرك ببطء خبيث حول قدميه المجهدتين هدأت حركتها.

أشرقت طينته وخفَّت، شيء عجيب هذا الذي تصنعه الكلمة.

نادى في الليل:

ـ السلام علىك!

فجاءه الصوت من بين الصخرتين:

ـ وعلىك السلام والبركة!

ـ ألا أجد هنا الرحمة من حيرتي؟.. أنا مصباح مظلم قذفت به إلى عتبتك الصخرية ضلالات وعذابات.

ـ ادخل مباركا!

في عمق الكهف رأي رجلا في حدود الخمسين جالسا على الأرض العارية، عجيب الهدوء.

ـ مرحبا بك، فاطرح عن نفسك هذا الشعور بأنك دخيل على خلوتي.

ـ سامحني يا سيدي.

ـ اجلس وحدثني كيف كان الطريق.

ـ الصحراء لم تهزمني، لكنها أخذت مني رفيق الطريق.

ـ بل أخذته منك حدوده التي ما كان قادرا على أن يتجاوزها.

نطقت الدهشة في عيني علاء الدين:

ـ عندما تهاوت إرادته خلفته على الطريق ومضيت، هل أخطأت؟

ـ مضيت إلى حدودك وتركته يحاول العودة إلى حدوده، وكل إناء عند الامتحان ينضح بما فيه، وفاقد الشيء لا يعطيه، أي خطأ في هذا؟

ـ لعله إن عاد إلى الجنوب واجد من يقول له إني لم أقم نحوه بالواجب؟

ـ الواجب مقاسات، وواجب الإنسان الأول هو أن يسعى إلى امتلاك القدرة التي دفعت بك مما لم تعد تطيق إلى مغارتي هذه في وادي المستضعفين.

ـ نعم يا سيدي، إني أشعر تماما أن هذا هو واجبي.

ـ سعيك يدل على أنك لم تقنع يوما بالأنماط الجاهزة، وأن عندك القوة الحقيقية التي ينكشف بها للإنسان جوهر الحقيقة.

ملأت الدموع عيني علاء الدين:

ـ طوال عمري الذي أنفقته في صياغة المواويل وتحفيظها للناس كان الشوق دائما يهزني إلى أنوار الجمال، لكني لست أكثر من عاشق صغير من عشاقه. ومن أجل الجمال يا سيدي خاطرت واقتحمت.

ـ والجمال في زماننا غريب.

ـ نبيلة كلماتك يا سيدي، هل تشرفني بأن تقول لي من تكون؟

تبسّم في وجه ساكن المغارة إشراق لطيف:

ـ أنا مثلك أحد العاشقين، واسمي عمر.

ـ واسمي علاء الدين.

ـ يا علاء الدين ليس معنى غربة الجمال في زماننا أن استفحال القماءة حال دائم، ولا معناه أن خيلاء الدمامة نصر نهائي... لا يزال الجمال يمشي متحسسا الأرض وضاربا خيامه في كل تربة صالحة.

ـ قرار نفسك ناطق في قسمات وجهك وبريق عينيك يا علاء الدين.. وما أنا إلا رجل مثلك.. إنسان أراد ملء روحه وبكامل الإرادة والوعي ألا يكون له كأس غير كأس الحقيقة، ولا شهوة إلا شهوة الجمال.. أنا مثلك عاشق جمال، وطالب مدد.

ـ خذ بيدي إلى عتبات الجمال يا سيدي المتواضع.

ـ مرحبا بك من البداية إلى النهاية، ومن الليل إلى النهار، لكن اذكر دائما أن اسمي عمر، وأني لا سيد لي، ولا أنا سيد أحد.

(٣)

دخلا المسجد من بابه الصغير فانفسح الزحام لعمر في إجلال صامت حتى وجد لهما مكانا للجلوس وسط الصفوف المتراصة التي لفتت نظر علاء الدين بانتظامها في شبه مربعات تركت بينهما ممرات خالية، ضيقة ومتقاطعة، لم يفهم في البدء سر وجودها.

ومع كتلة الناس كانت جدران جامع مصر العارية تصغي إلى واعظ المسجد الشاب وهو يلقي درس العصر، بصوت صارم أخاذ احتوى علاء الدين قبل أن تتولى عينه من صورة الواعظ الذي كان على غير عادة زملائه يتكلم وهو يمشي على الحصير في تلك المدقات التي أخلتها له إرادة قلوب ساعية إليه بالحب والظمأ.

صوت نفاذ تتداح منه إلى عمق من يسمعه موجات دافقة.. كما لو كان يطبع في القلب دمغة لا تمحى.. ثم دنا الواعظ فإذا هو شاب لم يكد يتم عامه الخامس والعشرين، تبسَّمت عيناه في تهلل لرؤية عمر، فخيل إلى علاء الدين أن كل من في الدنيا من خراب وضر وقبح يتراجع ذليلا، ويرتد منكمشا.

أصغى علاء الدين إلى الصوت البتار وهو يلقي في الوجوه الحاضرة والغائبة بسؤاله الرهيب.. ما مدى قربنا أو بعدنا عن جوهر عقيدتنا، وهل نحن حقا بفطرة هذا الجوهر عاملون، ولجلاله خاشعون، ولجماله عاشقون؟.. هل نحن حقا مسلمون؟.. لن نبرح هذا السؤال اليوم حتى نهتك ستره، ونعانق مرارته.

أصغى واحتوى وجوده الروحاني هذا البركان الحي في صورة إنسان يصعب على الكل حممه، ويفضح ترادف القبائح وتواتر المظالم بقسوة صارمة، كما يعدي خنوع المظلومين بصراحة واخزة.

كان عمر بن الفارض في الطريق إلى المسجد قد حدث صاحبه الجديد عن صديقه الثائر الصوفي برهان الدين الجعبري، أما الآن فإن علاء الدين يشعر أنه محمول على الومضات الدامغة لذلك الصوت الصارخ حول المنبر.. أنتم مسئولون وأين من مسئوليتكم المفر..؟ أقول لكم إنه الموت إن لم يكن لكم القرب بعد البعد عن الجوهر.. أقول لكم إنه الموت إن لم تتقلبوا على أنفسكم انقلابا جوانيا يعيدكم إلى التوافق مع الجوهر الصافي ويدخلكم تارة أخرى في ركب الحياة السائر.

كل الأستار يهتكها هذا البيان الساطع، وكل الزيف يتهاوى وينفضح.. الكلمات تصنع رؤية متكاملة.. الآن يرى علاء الدين بوضوح أليم وبيقين عقلي ضرورة التخلص من كل الأوضاع والمتاهات البعيدة عن المثل الواحد الحقيقي.. ها هي المأساة كلها معراة أمامه كالمسخ الكريه.. ها هم أهله قتلة الجمال.. ها هم الذين يضطهدون الفكر ويسحقون نبض القلب السخي الموصول بنبض الكون.. أقول لكم إنه الموت!.. الموت..

تشامخت الأعمدة البسيطة، وتلألأت الجدران العارية من كل زخرف، وشعشعت أنفس كان أكثرها قد جاء لا يحمل غير ضيعة رجائه وقنوطه وانكسار همته.

لا بد له أن يزداد قربا من هذا الرجل أيضا، وينهل من هذا البركان.

انتهى درس العصر فتريَّث الواعظ الشاب قليلا قبل أن يخرج من الباب الصغير وهو يدفع ابن الفارض إلى المقدمة، ويمسك بذراع الفلاح في مشية متمهلة.

ـ أهلا بصديقنا الجديد.

ـ مريدك علاء الدين.

ـ الإنسان يا علاء الدين هو جوهر القضية.

نطق الإكبار في نظرة صائغ المواويل البسيط:

ـ سيدي.. اليوم مثل أمس من أيام عمري المعدودة.

ـ وماذا كان أمس؟

ـ عرفت سيدي ابن الفارض. واليوم عرفتك.

تأمله برهان الدين الجعبري بنظرة واشية بالاستبشار:

ـ الإنسان يا علاء الدين هو أصل العقيدة ومناطها، والويل لنا إذا نحن لم نفضح من يسحقون القلوب ويملأونها قنوطا، ويشوِّهون الجمال، ويضعفون في الناس شوكته، ويضطهدون العقول، ويكسرون همتها.. هل تحب الجمال يا علاء الدين؟

ـ أنا من صغار عشاقه يا سيدي.

ـ إني لأرى في عينيك ذلك الصفاء الذي يشعل في القلب وهج الحق.

قال ابن الفارض وعلاء الدين يمشي بينهما غير مصدق نفسه:

ـ علاء الدين يملك ذلك الاقتدار الهادئ على أن يكون الإنسان كما ينبغي للإنسان أن يكون، لا شيئا من الأشياء ولا رقما بين أرقام، بل القادر قدرة الواجب والحق على أن يدوس على القبح ليعانق الجمال.

ـ كيف أشكر سيدي عمر وسيدي برهان الدين؟

نهره الأخير مترفقا به:

ـ اسمع يا علاء الدين.. مرحبا بك في صحبتنا لكن اذكر دائما أن اسم هذا الرجل عمر وأن اسمي برهان الدين، لا سيد لنا من البشر، ولا نحن فيهم سادة أحد.

(٤)

في صراع مع العناكب والحيَّات شقت المرأتان طريقهما عبر المدق حتى انهدت قواهما قبيل الغروب على مسافة من حجر ضخم يجثم فوقه ذئب كبير.

توقفت المرأتان تتشاوران، والذئب مغمض العينين لا يتحرك، باسط ذراعيه في جمود تمثال.

تساءلت الصبية النضرة في خوف:

ـ هل يأكلنا يا رباب؟

تأملت المرأة جافة العود خوف أختها على شبابها:

ـ ليأكلنا إن شاء يا هنادي فنستريح من الرجال آخر الأمر.

ـ لا.. ليس قبل أن أجعل من مروان عبرة للرجال كلهم.

ـ ولا قبل أن أفقأ بإصبعي هذا عين علاء الدين.. معك حق.

في حركة بليدة رفع الذئب رأسه عن ذراعيه، وأجال بصره في مشهد الغروب الشاحب قبل أن تتوقف نظرته الفاترة عند المرأتين الجامدتين على حافة المدق غير بعيد، ثم مط عنقه فجأة، ونشر في سكينة الصحراء عواء نداء للمجهول.

قالت هنادي وهي ترتجف:

ـ سمعت مروان مرة يقول إن الذئب ليس من عادته أن يعوي قبل أن يهجم.

ـ أراه ذئبا عجوزا فاتر الهمة.. أنرجع من حيث جئنا أم نستأنف السير، فنمر أمامه، ونمتحن ما يقصد بهذا العواء الكئيب؟

عوى الذئب مرة أخرى، وفي هذه المرة رددت الآفاق من كل صوب عواء ذئاب كثيرة.. وتمشت رعشة الرعب في كيان المرأتين عندما تواصلت النداءات المعولة في مدى دائرة مركزها ذلك الحجر الذي صار ظله المتطاول يترامى على الرمال في غبش الغروب كجثمان عملاق ميت.

ومن وراء كثيب على مدى البصر ظهر رأس ذئب آخر ثم تتابع بزوغ الرءوس المعتمة من كل النواحي حتى ضربت حلقة واسعة حول الأختين المروعتين وحجر المركز.

ـ هذه الوحوش ستتعشى بنا قبل أن نتغدى بزوجينا الهاربين.

وحلقة الذئاب تضيق، وتضيق وذئب الحجر يتمطى في العتمة ويقول بالعواء كلاما كثيرا تقطعه كلمات عشيرته النواحة، هم يتكلمون، والأفق يتداعى بالظلمة، وهو يتكلم.

(٥)

ناحت رباب فجأة في الظلمات:

ـ مدد.. مدد يا سهروردي.

وفي ومضة فكر خاطئة خايلها علاء الدين وهو يسألها لماذا رمته بالجنون عندما سألها أن تأتي معه أو تأذن له بالسعي وحده إلى ذلك الشيخ المبارك الذي طار له صيت بأن عنده علم الحقيقة، ثم سمعت أختها وهي تلطم وجهها:

ـ سمعت مروان مرة يقول: وماذا يفعل ألف سهروردي لمثل هذا الفساد المتوحش القابض على رقبة الحياة.. ما كان أصدقه مروان!

نهرتها الأخت الصارمة:

ـ سمعت مروان مرة يقول إن الذئب لا يعوي قبل أن يفترس.. وسمعت مروان مرة يقول إن الخير خسر معركته مع الشر.. وها أنت تهتفين بصدق مروان.. قولي لي يا أختي.. ما دمت هذه العاشقة لمروان فلماذا تتبعينه ناقمة أو مداعبة النقمة؟!

وذئب الحجر يتمطى، والحلقة محكمة من أنياب بارزة، فعادت هنادي تقول:

مدد.. مدد يا سهروردي.

لكن روحها ساخت إلى قاع اليأس فعادت تذكر رجلها:

ـ ليتني سمعت كلامك يا حبيبي.

وهمست رباب الراكعة أمام حتمية الموت:

ـ وليتني ما أغلظت لعلاء الدين.

وتدانت من المركز حلقة الأفواه المفتوحة عندما قفز ذئب الحجر الكبير إلى الأرض وعيناه تومضان في عيون المرأتين.

ـ يا حبات الرمال نادي معنا الشيخ السهروردي.. ويا نجوم السماء..

في لحظة الاستسلام للنهاية البشعة تقاعست بعض الذئاب فجأة عن دائرة الحصار، وبدأت تتلفت بأعناقها المتينة وهي تتشمم نسمة هواء مقبلة من الشرق، حتى الذئب القائد هو الآخر عاد فوثب إلى الحجر العالي فمد أنفه الدميم متشممًا الهواء في اتجاه الشرق، حيث ظهرت في الأفق أجسام خفيفة متواثبة لا تبين معالمها في الظلمة البعيدة، وتعلقت بذلك المشهد الفجائي كل إرادة الحياة في الأختين، ونهضتا متعانقتين في وجه المصير.

تلك الأجسام الكثيرة السريعة الحركة التي أخذت تدنو وتبتعد في وثبات رشيقة في كل اتجاه، وفي مناورة غير مفهومة، كيف شمت الذئاب رائحتها ولم تعبأ هي برائحة الذئاب؟

وبوثبة مجنونة قفز واحد من أفراد هذا القطيع إلى دائرة الحصار، غزال كبير جميل أخرق، وظل يستفز الذئاب بوثباته وسط الحلقة، ثم انطلق فجأة كالسهم المسدد إلى الفضاء العريض تتبعه جملة من الذئاب، وانفك الحصار وانتشرت حتى الأفق مطاردة محمومة بين الوحوش الجائعة والجمال المحلق.

تبادلت رباب وهنادي همسات غير مصدقة بالنجاة عندما شهدتا ذئب الحجر نفسه يغيب مع عصابته ليصبح في الظلمات قطعة من مشهد مبهم الوثبات والصيحات، ثم شهدهما ذلك الليل الصحراوي الموحش مندفعتين عدوًا في المدق، نقطتين صغيرتين من سواد في قلب السواد الكبير.

ولم تتوقف رباب إلا عندما سقطت أختها الصغيرة إلى الأرض متعثرة فحصته يدها المرتعدة:

ـ عظام إنسان!

ـ مسكين التهمه ذئاب لم تصرفها عنه مناوشة غزلان.

قالت رباب ذلك وهي تنحني أمامها لا تقوى على مد يدها، لكن هنادي رفعت عظمة ذراع طويلة تتدلى منها مزقة قميص:

ـ لكأني أعرف هذا القميص.

ـ وهل في الصعيد كله فلاح لا يلبس مثل هذا القميص؟

ـ لكأني أعرفه يا رباب.

ـ انهضي لنتابع العدو في اتجاه المدينة.

ـ أشم رائحة عرق أعرفها يا رباب.

ـ الوحوش حولنا.

ـ الوحوش قامت بالواجب.. الوحوش أكلته.

قالت رباب في إشفاق مكبوت:

ـ ألا تنهضين قبل أن يخطر لأحد هذه الوحوش الدنيئة أن يتذوق بعد لحم الغزلان هذا اللحم البشري الذي كان منذ قليل في أسر الحصار المحكم؟

ـ أنا يا رباب أعرف هذا القميص.

ـ دعي العظام للبلى وانهضي للحياة.

نهضت هنادي معولة كما لو كان الصعيد كله يعوي معها:

ـ هذه والله عظام حبيبي مروان.

(٦)

ـ أنت أمام كل فتى يهوى، وكل العاشقين رعيتك.

ضحك ابن الفارض وهو يقول في بساطة:

ـ إلا السهروردي إن شئت الحقيقة.

ـ لماذا؟

ـ لأنه صاحب علم القلب الكبير وفقيه الهوى الأكبر.

ـ هل يأذن لي الدهر فأراه؟

ـ يأتي دائما حين يريد، وأحيانا حين يراد.

ـ هل هو في مثل سنك؟

ـ كم تبلغ من العمر أنت؟

ـ تسع وثلاثون سنة.

تأمله عمر لحظة:

ـ إذن فقد ولدت قبلي بعشر سنوات، أما السهروردي فلعله الآن يقترب من عامه التسعين.

ـ هل هو شيخك؟

ـ هل قطب منير، لكن لا شيخ لي.. لم يكن لي أبدا شيخ. حتى أبي وكان من المتوقدين لا أعتبره شيخي.. وأنا نفسي لست شيخ أحد.

مع بزوغ القمر بلغ الرجلان بيت عمر في البهنسا، وفتحت لهما الباب جارية خفيفة كالظل تبسم لها عمر في صفاء:

ـ كيف أنت يا آية؟

ـ لي ساعة وراء الباب منذ أحس قلبي أنك توشك أن تظهر لنا.

ـ إنما طالت غيبتي منذ كنت مستوحدا في الجبل، إلى أن طلع لي هذا الموال.

تأملت الجارية الوجه الجديد يتعانق فيه التعب والرضا، وتوقفت نظرتها عند لمعة في العين برقت عند رؤيتها، وقال عمر وهو يقدم ضيفه في الدخول:

ـ هذا علاء الدين، عنده من علم القلب نفحة.

قادتهما الجارية إلى السعة والرحب:

ـ وهل يأتينا إمام المحبين إلا بأهل الهوى.. مرحبا بك يا علاء الدين في أرض الجماعة المنسجمة.

إلى عمق الفناء الظليل العطر مشى الثلاثة، وعلاء الدين يتنهد كلماته:

ـ ما أعجب أن يفتح لي باب فأجد عنده لطافة وجه طالما رأيته في سبحات الروح!

ـ أين كنت تراه؟

ـ في أرض الخنافس المتطاوسة، في وطني.

ـ وأين يستقر بك المطاف فيما تتخيل؟

ـ عند أهل الجمال، في وطنك.

تركتهما يستريحان من السفر عند خميلة، واحتواها البيت بغموضه اللطيف وراء تكعيبات الأزهار المتهللة لضوء القمر وجدائل اللبلاب المتعانقة. وسأله ابن الفارض وهو يتمايل طروبا كالطفل:

ـ كنت ترى وجه آية في سبحات روحك من قبل أن تلقاها؟

ـ نعم، عندما كان الواقع غليظا وبعيدا كل البعد عن مثل هذه المصحة، عندما كنت أهفو وأبكي كلما رتَّلت قولك:

تمسك بأذيال الهوى واخلع الحيا
وخل سبيل الناسكين وإن جلوا
أحبه قلبي والمحبة شافعي
لديكم، إذا شئتم بها اتصل الحبل
أخذتم فؤادي وهو بعضي فما الذي
يضركم لو كان عندكم الكل؟

تهلل وجه عمر وهامت نظرته فيما وراء السحب الرقيقة المتدافعة من أرجاء السماء لمداعبة القمر، وفي العمق ترددت همسات مزامير، وتداعت دفقات دفوف ورنات عيدان.. حي على الرقص.

تألق عقد الجواري في الصدور مغنيات بتلك الأبيات من شعر عمر البلوري، وأشرق في جنبات البستان الأنيق فيض من مدد، وبالانسجام المشعشع انتظم عمر وعلاء الدين في حركة الرقص التي ابتعثها بزوغ عدد محدود من الرجال المحلقين كأنهم نبعوا من شذى الأزهار المتقابلة، وتدفقوا من رحيقها.

مع كل من في البيت الجميل خفت طينة علاء الدين و شعشعت ، منذ احتواه الإيقاع الموزون المتناسق مع حركة الكون الكلية، ورفعه بالتصفية نحو الترقي واندمج به قانون الكون ذاته.

هدأت الدعكة فأسندت للبنات آلاتهن الدقيقة إلى الجدران، ونهضن من ركن الموسيقى أرواحا لطيفة، الرقص من اللحم والعظم حتى صار علاء الدين هدف عينيها الجميلتين، فراشة لطيفة يهفو إليها الوجدان بلا شهوة، تتبعها بسمة حانية على وجه ابن الفارض المشرق بالرضى.

ـ في أي حال كنت تراه؟

ـ وجهك هذا النوراني؟ في ليالي الحنين إلى الجمال كنت أراه في حميا الحب وكأننا في زورق.

ـ وحدنا؟

ـ والزورق يسري خفيفا بمجدافين أحدهما في يدي والآخر معك.

ـ والمجدافان متشابهان؟

ـ لعلهما كذلك.

ـ وكنت تنشد النجاة؟

ـ من وطن ليس وطنا وبيت ليس بيتا، ومن خراب روحي وطاحونة مفترسة.

ـ كيف تفهم الحب يا علاء الدين؟

ـ أقصى المراد وغاية المنى.. هكذا تعلمت منذ كان وهمي يحضرك لنفسي تصورا.

ـ قبل أن تلقاني شاهدني فكرك بطرف تخيلك، حتى حسبتني نديمتك في عالم الحس، والآن يا علاء

الدين والعين في العين، وأهلك في دين الهوى أهلي، أتشتهيني لحما ودما أم نعتنق روحا واحدة؟

عند سؤالها جاشت نفسه بإحساس غامر بالتسامي جعله يقبل طرف كمها بخشوع، فتبسَّمت وأشرق الوجود بابتسامتها حتى صار سماء بلا حدود، ومرت لحظة بالغة العمق قبل أن تتناهى إلى تلك السماء صيحة فرح ترددت بالباب المفتوح:

ـ السهروردي!.. السهروردي..

في الباب رأى بياض اللحية وبريق الصلعة وتلك الابتسامة في جذوتي العينين مضيئة تحتضن الكل، فتقدم غير هياب من الشيخ الذي قال له منذ أيام على مدق الصحراء إنه لا سبيل إلى الاقتحام بغير طاقة روحية فوق العادة.. وتناول العصا من يده.

أخذته ابتسامة السهروردي في حضنها:

ـ يا فلاح، هل وجدت آيتك؟

أطلق عمر ضحكة جلجلت أصداؤها في ثنايا الخمائل، وتداعت الدفوف والعيدان فواثبت الجماعة المجنحة إلى رقصة جديدة على فيض بيتين من شعر الضيف الجليل:

لا تسقني وحدي، فما عودتني
أني أشيح بها على جلاسي
أنت الكريم، ولا يليق تكرما
أن يعبر الندماء دور الكاس!

(٧)

ـ إن هذه الأمة وهي في نهاية الربع الأخير من القرن السابع للهجرة لا تكاد تفهم من أين دهمها كل هذا الفساد والانكسار بعد أقل من أربعة قرون من الازدهار الجبار، تركزت فيها كل الأمجاد والعظائم ونعمت فيها الأمة بكل الشوامخ في القيادة والعلم والفقه والأدب والفلسفة والفن.. ولا بد لها أن تفهم حتى ينهض الناس للتبرؤ من كل أثر لتلك المعارك الوهمية التي شغلت قرابة القرون الثلاثة الأخيرة، وللعودة إلى احترام الكرامة الإنسانية التي هي جوهر الدين، ولفك أسر المعرفة والعقل.

كان برهان الدين الجعبري وضيفه قد فرغا من تناول عشاء بسيط على كنبة يحتسيان القهوة، وكان صاحب البيت يستكمل درس العصر في المسجد ويزيده بيانا.. فقال علاء الدين وهو يستروح شذى الحبهان في الفنجان:

ـ لعلها مسئولية الخارج بغزواته وعداواته لأمتنا؟

ـ مسئولية الخارج في هذا أقل من مسئولية الداخل.. إن رياح الانحسار إنما هبت على هذه الأمة من داخلها قبل خارجها.. انقسمنا شيعا.. وانشققنا مذاهب.. وتفتتنا عصبيات.. وسكتنا على حكامنا حتى تحولوا من رعاة مسئولين إلى طغاة.. وعذبنا أصحاب الرأي.. وأقفلنا باب الاجتهاد دون أن نخجل من أننا نصنع بأيدينا أقفالا ونضعها على عقولنا.. وأي نذير أخطر من هذا لقوم قال لهم بشير عقيدتهم إن العقل سلاحه والمعرفة رأسماله؟

تناهى إليهما دق ملح على باب البيت، ثم جاءت صبية من قريبات الشيخ فوقفت بباب الحجرة متهيِّبة:

ـ يا عمي..

ـ ماذا هناك يا بنية؟

ـ امرأتان تلحَّان في طلبك وتكادان تكسران الباب.

ـ ماذا تريدان؟

ـ قالتا إنهما يريدان ضيفك.

هبط علاء الدين في الحال من مقام الآسي على حال الأمة، وضرب كفا بكف:

ـ ورائي ورائي.. لا فائدة.

قال الجعبري دون أن يخفي ضحكه:

ـ زوجتك وأختها يا بطل.. ترى من دلَّهما على مكانك في بيتي؟

نهض علاء الدين محرجا:

ـ تركت لرباب دنياها بما فيها لكنها لا تقبل أقل من وضع الحبل في عنقي.

أشار الشيخ إلى الصبية أن تدخل الضيفتين، ثم وضع يده على كتف صاحبه وهو يضحك:

ـ المرأة يا علاء الدين كالحقيقة، إذا رضيت عنك لم يعد أمامك إلا الاستسلام لها.

وأبرز القليل من الطعام الباقي في بيته: كسر خبز، وأثر جبن، وبقايا عسل.

ـ شد حيلك يا بطل.

(٨)

ما إن دخلت الأختان حتى نسيت هنادي تحية صاحب البيت وأطبقت بأصابعها المتشجنة على طول جلباب علاء الدين المحرج:

ـ جالس أنت هنا تهنأ بالضيافة وكأنك ما أخذت مني مروان لحما ولا تركته لي على الرمال عظما.

ـ اتق الله يا هنادي في بيت لم يعرف إلا الصفاء.

ـ عندما تبينت أن العظام التي قلبتها بين يدي عظامه لعنتك يا خائن الصداقة.

تلطف الشيخ في فك قبضتها عن ضيفه:

ـ ألا مسيت علىنا أولا بالخير؟

ـ أي خير في بيت يرضى أن يأوي رجلا مثل هذا ترك رفيق سفره للذئاب الجائعة، وجاء المدينة ينعم بضيافة أمثالك من المخدوعين فيه.

تبسَّم الشيخ وهو يدعوها إلى الجلوس متلطفا:

ـ لا تظلمي زوج أختك، فما أخذ منك مروان في البداية غير الطموح في النجاة من حياة كريهة، وما تركه لك عظاما على الرمال غير عطب في همته قعد به عن الوصول إلى غاية بغيته.

جلست هنادي وهي تغلي بغيظ معتق، وتركت علاء الدين لامرأته التي تجمع إلى الهدوء قوة الشكيمة:

ـ تركتني نائمة وتسللت هاربا، وما هكذا فعل الرجال!

قال الشيخ وهو يبلسم الجو بطريقته السلسة:

ـ الحمد لله، هذا لوم مبطن بالصفح.

وقال علاء الدين في رفق وأناة:

ـ كم قلت لك يا رباب إني مللت عشرة القلوب الميتة.

ـ وإلى أين أبلغك هروب لا يليق بغير الغلمان في سن الطيش؟.. إلى أين وقد بلغت الأربعين على التقدير الأقل وطقطقت ركبك؟.. وماذا وجدت في هذه المدينة الكبيرة غير ما تركت عندنا؟

تلطف علاء الدين حتى أجلسها إلى جانبه:

ـ الحق أن فساد الحال هنا وهناك واحد، إن لم يكن هنا أكثر ضراوة، وأعتي صولة، وأوقح تمركزا، لكن ما حيلتي؟هذا هو قدري.

التفتت رباب إلى صاحب البيت:

ـ لماذا تأوي رجلاً مثل هذا لا نفع فيه؟

ـ ومنذ متى كان النفع أساس الصداقة؟

تحيَّرت المرأة في رد الشيخ لحظة قبل أن تعاود المناوشة:

ـ طوال حياته لم يفعل شيئا واحدا نافعا.. مواويل في مواويل.. دعيني أفكر.. اقفلي الباب عليّ واتركيني أتأمل.

ارفعي يدك عني وكفاني عذاب زماني. . لم يستطع حتى أن يمتعني بولد يملؤ حياتي أو بنت تشغل وقتي.. اسأله عن آخر مرة كسب فيها درهما.

حركت الوخزة مواجع علاء الدين:

ـ أنت وأمثالك لن تفهمي أبدا معني أن رجلا من غير المداحين والندماء والمرائين لا بد له إذا أدركته حرفة الأدب في مثل هذا الزمن أن يكون كأسد السوق.

ـ لست وحدي الحائرة في أمرك أنت ومواويلك.

ـ أنا لا أقول كلماتي تسلية للمستريحين فكيف أكون أنا نفسي مستريحا؟.. مواويلي ليست لعبة لقطع الوقت، ولا حلوى سهلة الهضم، سائغة المذاق، يمضغها المرفهون ومن يدور في أفلاكهم.. مواويلي لا تخدم غير الحقيقة وحدها، والأرزاق على الله.

دفعت رباب بأصابعها العجفاء كتف الجعبري:

ـ أَفهمني أنت ما هي هذه الحقيقة التي لا يفتأ يتحدث عنها.. إن الحقيقة الوحيدة التي أعرفها هي أنه رجل لا غناء فيه، وأن مصيبتي فيه أكبر من أن يعزيني فيها أحد.

أشار علاء الدين إلى صاحب البيت:

ـ حتى هذا العالم الجليل؟

تأملت المرأة الشيخ وهو يقرِّب منها صينية العشاء:

ـ مصيبتي فيك أكبر من أن يعزيني فيها أحد، ولو كان هذا الشيخ الذي يسندك ويأويك ويقودك بإذن الله إلى الضياع.

قال الجعبرى وهو لا يغالب الضحك:

ـ اسمعي يا رباب!.. ما دام أولاد الحلال قد دلوك على مقام رجلك في بيتي فلماذا لا تبقين معه في ضيافتنا وتطعمينه بدل ثمار اللوم المرة حبًّايدفئه ويعينه في بحثه؟

ـ وعم يبحث؟!.. ألم يسمعك شيئًا من كلماته المبهمة المخبولة؟..النباتات المتسلقة والأرواح الخربة.. وكل هذا الهذيان أضاع به عمري؟

قال علاء الدين في فزع:

ـ هذيان؟!.. دعها تعود إلى البلدة.. إن زوجتي الآن هي الحقيقة..

في هذه المرة كانت هنادي هي التي انسحبت من لسانها:

ـ سرعان ما تزوجت على رباب واحدة من نساء المدينة.

وقالت رباب وهي تتأمل وجبة العشاء الهزيلة:

ـ الحقيقة الوحيدة هي أن ركبه طقطقت كما طقطق عقله، وقل علىه العوض.

قال الشيخ:

ـ إن الحقيقـة التـي يبحث عنها رجلك هي معشوقة غير بنات البشر يا رباب.

ـ من بنات الجن؟.. هذا هو ما كان ينقصه.

ـ بل هي من جمال البهجة وقوة الجذب في مقام يجعل عاشقها صاحب صبابة وهمة.

ـ وصاحبك لا صبابة ولا همة!.. وهل معني كلامك هذا أنك توافقه على أن يطلقني؟.. هل أجمع الناس ليتفرجوا على شيخ لا يستحي أن يحض رجلا متزوجا على العشق؟!

نظر الشيخ إلى صاحبه وتنهَّد:

ـ انظر كيف بدأنا جلستنا في بالكلام في المليان، وأنهيناها في الكلام الفارغ.

(٩)

جذبت علاء الدين ناصية زقاق تناهى إليه منه إيقاع ربابة تسند صوتا بشريا خشنا يتوضح كلما خف من حوله التهليل، ولم يجد مكانا للجلوس فأسند ظهره إلى جدار عطن وأصغى إلى الكلمات الرنانة الأخيرة لشاعر الربابة الذي كان يختم حصة الليلة من حكاية طويلة بموقف مثير تنحبس له الأنفاس، لقد سقط الحاكم الطيب أمير الناس في شرك الوزير اللئيم في دنيا وهمية غير دنيا الناس، وإلى الغد.

من عمق المقهى جاء صوت مخدور:

وابتعثت الصيحة تأييدا جماعيا:

ـ لن نتركك تنصرف قبل أن تطمئن قلوبنا على الأمير ابن الحلال.

ـ وحياة والدي يا شيخ طنطاوي تقطم لنا الليلة رقبة الوزير ابن الكلب.

بتمام الرضى عن نفسه تأهب المنشد للانصراف بعنقه الغليظ وابتسامته اللئيمة:

ـ باكر إن شاء الله نرى ما كان من أمر الوزير الغادر أس الفساد في البلاد والحاكم العاقل، والأيام دوَل يا سادة يا كرام.

وابل من الضراعات والنداءات احتوى علاء الدين مع الضجيج العام وهو يشق طريقه مرة أخرى مبتعدا عن المقهى.. وعلى أرض الزقاق المبطلة سمع وراءه وقع خطى ونِتف حوار حول ما سيحدث للحاكم الطيب المقهور بيد اللئيم المغرور.. لن يتمكن الأمير حبيب الناس وزين الحاكمين من إصلاح الأحوال حتى ينصره الشيخ طنطاوي على ابن اللئيمة وعصبته.

وتحاشى الكلاب السائمة وهو يسمع صوتا يخاطبه من وراء كتفه:

ـ لكأن الشيخ طنطاوي يريد لنا ألا ننام الليلة أو نهتم بأشغالنا ونفكر في أحوالنا حتى الليلة المقبلة.

التفت فوجد أمامه شابا قاهريا خفيف الحركة تفوح من قرطاس في يده رائحة الفول المهروس المقلي في الزيت.

ـ أليس هذا هو ما يحدث كل ليلة من كل منشد ربابة في مقهى في كل حي؟

ـ صدقت.

ـ وهكذا كان الحال عندنا في الصعيد.

ـ كل ليلة؟

ـ كل ليلة.

ـ أصحاب المقاهي نوع واحد من الأذكياء.

ـ لعل الوحي الواحد الذي ينزل على منشدي الربابة هو مصدر الأذكياء.

ـ وحي؟

ذكاء صاحب المقهى محدود برغبته في أن يتزايد عدد رواده، ويتوالى الطلب على ما يقدمه لهم، لكن السر الحقيقي عند أصحاب الربابة أنفسهم.. الشعراء كما يصفهم الناس الطيبون.. أهل الصنعة الذين يسلسلون النوادر في حلقات يدفعون إلى الناس كل ليلة بحلقة منها يختمونها بنهاية تريد للناس ألا يفكروا في شيء غيرها حتى موعد الحلقة التالية.

ـ وأنت ترى أن وراء هذا وحيا واحدا؟

كانا قد خرجا من عطن الأزقة إلى شوارع المدينة في الليل تحت مظلة من صيحات المجاذيب.
وعلى مصاطب الدكاكين ودكك المقاهي كائنات شاحبة الوجود بينها كثرة من العور والعميان والمساليب والمجذومين وأولاد الليل.
وبين كتل القمامة المعتقة في الأركان كلاب شرسة وقطط كبيرة الرءوس تطق من عيونها شرارات وحشية.
وتأمل علاء الدين الوجه الأسمر الوديع قبل أن يبتسم وهو يشير إلى القرطاس الصغير:
ـ كنت في الطريق إلى تناول عشائك مع أهلك؟
ـ أمي هي كل أهلي، وهذا عشاؤها.. أنا أكلت في الدكان.
ـ أنت صاحب الدكان؟
ـ أشتغل مع خالي في النحاسين، واسمي حسن.
ـ مستريح في عملك؟
ـ خالي رجل طيب.. عيبه أنه يريد أن يزوِّجني أي واحدة من بناته الكثيرات، وأنا من الصنف الذي لا يتزوج «أي واحدة».. وأنت؟
ـ أنا وافد من الصعيد وعلى باب الله.
ـ فلاح؟
ـ فـلاح في الأصـل والحمد لله.. لكني صاحب مواويل.. واسمي علاء الدين.. وقد تزوجت في الماضي البعيد «أي واحدة» ولا أزال أشرب من يدها المر.
كانا قد بلغا بابا خشبيا عتيقا لبيت خفيض مبهم في الظلام، فتوقف حسن وقال:
ـ أترك الطعام لأمي ونستكمل جولتنا في الليل؟
ـ افعل.
ـ ألا تريد أن تدخل فتنال بركة يدها على رأسك؟.. إنها عمياء لكنها مبصرة القلب.
ـ في مرة أخرى يا حسن.
لم يغب حسن في الداخل، ظهر متهللا للصداقة الجديدة:
ـ أعد على سمعي الكلام الذي كنت تترنم به منذ قليل، فلقد مست قلبي منه نبضة زائدة.
تبسم علاء الدين ورتل في الشارع بصوته الرجولي العميق القرار:
«اسقنا !»
«اسقنا ووحدنا واهدنا أن نتلاقى ونتواصل!»
«واسقي معي كل العطاشى ولا تسقني وحدي!»
«اسقنا من عين وجودك ومن معين جودك!»
ـ أنت قائل هذا الكلام الجميل؟
ـ هذا ما تلقيته عن شيخنا الجليل السهروردي.
تأمله حسن بدهشة مشوبة بالفرح:

ـ أنت تعرف السهروردي؟

في الليل برودة خفيفة، وبعض الباعة نائم إلى جانب بضاعته في رعاية القناديل المسرجة.. فجأة ظهر لهما السهروردي خارجا من دكان نساخ وفي يده أوراق وهو يكلم نفسه بصوت عال عن ضرورة الدفاع عن الجمال في وجه الدمامة المتراكمة عبر القرون السيئة.

ـ ها هو الطيب البسيط الساحر، كأنما يستدعيه مجرد ذكره على اللسان أو في القلب .

انتعشت الساحة الصغيرة وصحا النوام والتفَّت العواطف حول ذلك الصوت الشامخ:

ـ يا عشاق الجمال تواصوا وتواصلوا، فلا حل غير الدفاع المستميت عن حصن الجمال الصامد ضد انحطاط الهمم واستشراء النفاق وضيق الأفق وكل ثمار الجمود.. والمدد المدد من العقل الكلي الواحد الساري في الكون، عين الوجود ومعين الجود.

وكما ظهر فجأة قبضت يمناه فجأة على قفا رجل مندس في الجمع الصغير السعيد، فرزه واستخرجه وتمكن منه.

ـ من أنت يا كبير الأذن؟

ـ خدامك عبد المجيد.

رشق السهروردي في عينيه نظرته الكاشفة:

ـ شغلتك يا طويل القفا؟

ـ على باب الله يا سيدنا.

ـ لا.. لست على باب الله أبدا.. قل لهؤلاء الطيبين من أي الأبواب سلكت إليهم بأذنك الكبيرة هذه؟

ـ أكل العيش مر يا سيدنا.

ـ شغلتك في كلمة واحدة؟

ـ مندوب معلومات.

ماجت الساحة بضحكات الناس وهم يتناولون البصاص من قبضة الشيخ، فأهل هذه المدينة لا تفوتهم النكتة، ويعرفون كيف يكون الضحك، كما يعرفون في ساعة الجد كيف يكون السلوك العفوي الحاسم.

وهو ينصرف حاملا أوراقه صار صوته يجلجل في المدينة:

ـ يا عشاق الجمال تواصوا وتواصلوا، وإذا كان النفاق وقحا فلتكن الصراحة باسلة.

(١٠)

دعنى أعتذر إليك من هذه الطريقة الفظة في طلبك.

ـ سيدتي تأمر فيطيع الناس.

ـ أخرجناك من نومك على أيدي الجند في هذه الساعة.. والحق أن الأرق أصابني ولم أجد ما أفعله غير الاهتمام بقضيتك.. زوجي يبيت الليلة في المنيا في صحبة من العلماء والأدباء والفقهاء، في حاشية السلطان العالم الأديب الفقيه زين السلاطين.

ـ ثقي أن قلبي لم يمتلئ خوفا من استدعائي على هذا النحو، لكني غير فاهم، ولا قضية لي.

ـ ليس للأمر صلة بسلطة زوجي في وزارته عند السلطان.. لقد جاءتني امرأتك شاكية منك.. ومن كلامها عرفت أنك واحد من أصدقاء رجل أشتاق أن أعرف عنه كل شيء.. كما ترى لا علاقة بين رغبتي في مقابلتك وما يشاع ظلما عن قسوة زوجي المؤمن الطيب.

إلى أي حد باخت معاني الكلمات في هذا الزمن الوغد؟.. عابد الجاه هذا، الوصولي بأنانية لا تليق بالإنسان، والذي تشيع في طول البلاد وعرضها مئات من النكت تتندر بما يملك من طول في اللسان وفي اليد، ألا تخجلين يا امرأة وأنت تصفين هذا الدنيوي المتفاقم بالطيبة والإيمان؟

ـ امرأتي أنا يا سيدتي جاءتك شاكية مني؟!

ـ هي التي قالت لي وهي تطلب مني أن أعيدك إليها.. إنك من المقربين الجدد إلى واعظ مسجد مصر.

ـ لعل الشيخ الجعبري هو من تريدين أن أحدثك بكل ما أعرفه عني؟

ـ نعم.. خذ مجلسك.. ولكن حديثك قبل تناول العشاء وأثناء الطعام وبعد، صورة حية لأستاذك.

خذ راحتك كما يكون حالك في بيتك وحدثني عن الرجل.. أنا في الحقيقة أريد أن أبني له مسجدا على حسابي يحمل اسمي للذكرى وابتغاء مثوبة الله.

أحدثك عن الرجل؟!.. ماذا تريدين يا امرأة من ثائر مؤمن حقا يصب عصر كل يوم على أمثال زوجك من أركان الفساد صواعق غضبه؟

وهو يجلس متحرجا تأمل امرأة الوزير وجبروت فتنتها، وهجس في قلبه دعاء: «مدد يا سهروردي!».

ـ هل هو حقا رجل رائع الشباب، جميل الصورة، مهيب القامة، ساحر النظرة والإشارة والكلمة؟

ـ هو ذلك كله وشيء أكبر.

ـ أكبر من هذا؟

ـ نعم.. إنه في جملته رجل غير تقليدي.

ـ لا أريد جملته بل تفصيله..

ـ هو مؤمن حقيقي، وعقل متحرر.

ـ اسمع يا علاء الدين!.. هناك كلمات أتمنى ألا تكون شائعة في كلامك.. تقليدي.. متحرر.. هذه كلمات جديدة على سمعي وفهمي فارحمني منها من فضلك.. قل لي يا علاء الدين.. هل ستنقل إليه رغبتي في أن يعظني وعظا خصوصيا ولو مرة واحدة؟

الوزير الخطير مسافر في حاشية السلطان، وأنت هنا تبحثين عن الوعظ الخصوصي؟

تمالك علاء الدين نفسه قبل أن يتكلم:

ـ هو عظيم لأنه ثائر على هذا الزمن الذي صار دين الناس فيه عبادة المال والجاه.. إن قيمته الحقيقة يا سيدتي في غير صباحة وجهه واكتمال شبابه.

ـ عدت يا ضيفي إلى الكلمات التي ينغصني عدم فهمي لها. قل لي، هل الرجل متزوج؟

دعته إلى طعام شهي دخل به غلمان وصبايا يرفلون في النعيم ويغمزون له بركن اللحاظ المكحولة.. ماذا تريدين مني يا امرأة وما صفتي أنا في هذه المسألة؟!

لكنها بعد صبرها الطويل علىه اختفى من هيئتها حال الرضا المصنوع والبشاشة المدروسة، وتتمَّرت له:

ـ اسمع أنت!.. إنك لا تدري أين يمكن أن ألقي بك إلى آخر يوم في عمرك إن لم تحمل إليه رسالتي.. هل ستحدثه عن فكرة المسجد الجديد وتطلب إليه أن يأتيني بصورة البنيان وحساب التكلفة؟

ـ لا فرق بين أن أحمل إليه منك كلاما أو لا أحمل، فإن النتيجة واحدة.

ـ وما هي هذه النتيجة؟

ـ لن يستجيب.

ـ من يدريك؟

الشيخ برهان الدين الجعبري ليس من أهل الوعظ الخصوصي.

ـ حتى لو كنت أنا صاحبة الدعوة؟.. ما هذا؟.. إنسان فوق إرادة الكبراء؟!

ـ إنسان تحت إرادة الله.

ـ أنت لص فر من بيت الزوجية بمصاغ زوجته المسكينة.

ـ مصاغ؟!

ـ حلي من ذهب وفضة.

ـ في بيتنا نحن؟!

ـ الإنكار لن يجديك نفعا.

ـ تقصدين أن لديكم تهما ملفقة؟

ـ جامزة!.. لكن لها في حالتك أساسا.. زوجتك بعثت إلينا بشكواها وارتمت على عتباتنا.. ولا يسعني إلا أن أكون غوثا للملهوفين. ويبدو أنك أغريت أيضا زوج أختها بسرقة حليها الذهبية هي الأخرى والفرار معك.. يا لصوص، يا أعداء أمن الأمة.

إلى أي حد باخت معاني الكلمات في هذا الزمن الوغد؟

(١١)

ـ من نعم الله علىنا نحن النحاسين أن معظم زبائننا من النساء.

وهل يتمايل مغالبا الضحك غمز حسن علاء الدين:

ـ ويا طول صبرك يا خال على ثرثرة عقولهن الفارغة!

ـ محضرهن أشهى، ويرطبن الجو.

ـ ومناكفتهن في الشراء؟

ـ حلوة هي الأخرى.. مالها المناكفة مع الحلوين؟

قال صاحب الدكان ذلك وأشهد علاء الدين على صاحبه:

ـ ثم إن هذا الاعتراض منه هو بالذات غريب جدا.. ألا ترى معي ذلك؟.. إيش حال لو لم يكن هو نفسه قتيل النسوان؟

قال علاء الدين وهو يضحك:

ـ لا مؤاخذة يا معلم، الولد لخاله.

نغبشت أفيونة العصر في دماغ المعلم:

ـ ألم تحاول أنت بلا فائدة أن تجر رجله إلى مشايخك لعله تمسه هداية من مخالطة الصالحين؟.. حاولت أم لم تحاول؟.. وهل انْقاد لك، أو سمع كلامك، أو خجل من تقواك، أم تمادى في خبصه من بعد أذان العشاء إلى أذان الفجر؟

كانوا في مداعبة سعيدة عندما هلت على الدكان أنثى عظيمة الجرم عالية الردف لعلع صوتها في الحي:

ـ الحمد لله أني وجدتك هنا يا حسن.

ـ أهلا بك يا ست رشيدة.

لحظ علاء الدين الحرج في استقبال صاحبه للمرأة المتبرجة، لكنه ركز استمتاعه على ألوان حفاوة المعلم بهذه المرأة التي يقصد مظهرها رغم دنوها من آخر الشباب أن يصرخ بحقيقتها في غير استخفاء.

رشقت المرأة المعلم بنظرتها الفاهمة:

ـ العوافي يا معلم.

ـ يا أرض احفظي ما علىك.. تفضلي.. هنا إلى جانبي.. اللهم زد وبارك.. اللهم أدمها نعمة.

ـ قلت لنفسي من أين نشتري النحاس الجديد يا رشيدة غير محل المعلم الظريف الذي يفهم في الذوق، وبالمرة أشوف ابن أخته.

ـ النحاس وصاحب النحاس وابن أخته والضيف هو الآخر رهن الإشارة يا قمر.. هذا صاحب حسن، من السالكين ودعوته مقبولة.

بنظرة غير مكترثة عبرت المرأة على هيئة علاء الدين البسيطة قبل أن تقول لحسن في نعومة:

ـ أبو على وحشنا ولم نوحشه، ولنا علىه عتاب بعد أن نتفرج وننقي وتحصل لنا البركة بحضور صاحبه السالك.

وبسطت كفيها ورفعت نظرتها نحو السقف:

ـ عقبي لنا ذات يوم نسلك فيه نحن أيضا.

ثم ضربت كتف المعلم بقبضتها مداعبة:

ـ هيا ناغشني وفرَّجني.

تحكمت الأفيونة في دماغ المعلم فعقد العزم على أن يلضم مع هذا الهودج البشري، وكانت إشارته الخفيفة إلى حسن وعلاء الدين بالخروج من الدكان هي التي انتزعت حسن من استحيائه، إلى أن سأله علاء الدين في الشارع:

ـ قوادة، وأسميها باب البغايا.

ـ متى تسأم هذا كله يا حسن؟

ـ إني أصارع شيطاني.
ـ معركة ينبغي أن تنتهي لصالحك.
ـ لا تنزلق إلى موعظة فأنا أكره النصح وأعانده بطبعي.
ـ فهمت أن لها علىك عقابا؟
ـ لم أدخل بيتها من نصف شعبان.
ـ أكثر من شهرين.. لا بد أن شيطانك قلق.
كانا قد خرجا إلى الساحة الصغيرة حيث تبلغ حركة التجارة أوْجها، فتوقفا أمام نصبة يتذوقان التمر هندي.
ـ ألم تعرف في حياتك واحدة من هذا الصنف الذي يبدأ حياته بالفقر والبغاء، ثم يختمها بالقوادة مع شيء من الرغد، وقد ينتهي إلى الحج والتوبة؟
تبسَّم علاء الدين:
ـ في الأرض التي أخرجتني تقْتل الأنثى إذا تبسَّمت لرجل غير أخيها أو زوجها.
ـ كلهن شريفات هناك؟
ـ قبل هذه المدينة لم أر من الخليعات غير اثنتين من الغوازي رأيتهما في مولد ترقصان حول نبوت رشقت كل منهما أحد طرفيه في سرتها، وقد أصابني من منظرهما غثيان نفضته بعد ذلك في موال.
ـ وهنا في المدينة؟
بالأمس فقط واجهت الخلاعة في شخص امرأة عجيبة، ورأيت شر أنواع البغاء ملفوفا في الحرير.
ـ من هذا الصنف؟
اتسعت ابتسامة علاء الدين:
ـ بل من النوع الدسم.. زوجة وزير يا جدع.
ـ شفت بركة المشايخ..
دوَّت في ركن الساحة ضحكة علاء الدين:
ـ سأحكي لك الحكاية كلها، فلقد ذكرتني رشيدتك بزينتي.
ـ اسمها زينة؟
ـ أتعرف يا حسن؟.. أنا لا أحب هذه المدينة الملفقة.. ولولا المصابيح الكريمة المتنادية من أطرافها لكانت هجرتي إليها صدمة حياتي القاصمة.

(١٢)

كان برهان الدين الجعبري يتكلم عندما لمحت رباب رجلها وقد ظهر واقفا في خشوع وراء كتف شهاب الدين السهروردي، فتنهدت قلقها:

ـ لا أفهم كل ما يقول هذا الرجل المخيف.

من داخل بيت الجعبري البسيط كانت الجماعة الصغيرة من النساء تصغي إلى صوته المتدفق في حوش البيت، وهو يلقي بإشارته الوامضة وسط جماعة من ضيوفه، بعد أن افتتح السهروردي الجلسة بمدخل بث في جماعة الرجال المتحلقة دفء التوادد والتفاهم وحيوية الاستبشار والإحساس بضخامة القدرة.

تأملت آية التي جاءت مع بعض زميلاتها في ركاب ابن الفارض وجه رباب المفعم بالقلق ونكشتها:

ـ بعد أن يهدأ البركان الجعبري سنستمع إلى مواويل علاء الدين التي غزت المدينة.

وهذه النكشة الخفيفة استفزت رباب كما توقعت الجارية الظريفة:

ـ ادخري إعجابك لرجل مليء.

ـ أليس هو بالمليء؟

ـ هذا الفارغ الكسول؟!.. لن تجدي أفرغ من عقله سوى جيبه.

ـ آه!.. هذا إذن هو المكيال عندك؟

ـ وهل عيب الرجل إلا جيبه؟

ـ أنا أرى الرجل مليئا.

ـ لعلك عددت براغيثه.

ـ هو مليء لأنه يملك قدرة الرفض.

ـ تقولين قدرة وأقول خيبة!.. وأية خيبة أكبر من أن تكلفه سيدة عظيمة بكلمات ينقلها إلى صاحبه هذا الجعجاع الذي أتلف أمله فيستكبر ويتأبى ويخرج من عندها حاملا وعيدها في مكان حسن المكافأة؟

ـ هذه القدرة على الرفض هي المعيار الحقيقي للرجال.

وقع صمت قصير لمحت رباب خلاله ظهور عمر بن الفارض إلى جانب السهروردي على الدكة التي تتصدر الحوش وتواجه الباب المفتوح على مصراعيه، ثم توقفت نظرتها عند وجه رجلها الواقف وراءهما.. وتأدت إليها تحايا الجمع السعيد من الطيبين أهل الذوق، فعذبتها مرة أخرى فرصة امرأة الوزير أضاعها رجلها.

ـ أتحسبين امرأة الوزير زياد تنسى لصعلوك مثله هذا الرفض الأحمق؟

ـ أتحسبينها عظيمة لأنها امرأة وزير أم لأنها خلعت الحياء وأعلنت شبقها؟

ـ في كل ساعة من الليل أتوقع خطى الجند يطلبونه لسلخ جلده..

ـ أكنت تصبحين راضية عن هذا الدور لرجلك لو أنه قبله؟

ـ وما الضرر من إضافة مسجد جديد إلى مساجد المسلمين؟

ـ إن ما رفضه رجلك هو العار.

ـ لا عار فوق عار الفقر.

ـ لو أحسنت النظر إلى الرجل الذي عاشرته عشرين سنة لأدركت كم هو غني بموقفه ومواويله!

ـ مواويله؟!.. لو حسبت منها طوال عمره لما جمعت ثمن أردب غلة.

ـ إن لم يكن الحب هو المطلوب منك فهو بعض الصبر.. وسترين هنا لمعان نجمه.

صوت الجعبري الآن يحتوي الكل.. أمة بلا عقل هي أمة بلا أخلاق.. كتلة صماء عمياء تنحدر إلى الهاوية.. الخصاء العقلي يورث المبتلى به خصاء أخلاقيا.. وهذا هو لب المصيبة.. هؤلاء المحترفون الذين يقذفون بالتفكير في وجه كل من له فكر ينبغي أن ينبع من ضمير الأمة، من يقول لهم إنهم بوقوفهم ضد حق العقل في المعرفة يضعون أنفسهم لا ضد سير الحياة وحقوق الإنسان فقط بل أيضا ضد روح الدين.. عظمة الإنسان في أنه دين بلا كنيسة، فلماذا يريدون الذين يحترفون الكلام باسمه أن يخلقوا فيه كهنوتا لا ينبغي لغير محترفيه أن يجادل فيما يقولون ويفعلون؟.. سنأخذهم من ضعفهم، حبهم للدنيا، ولن نرهب قوتهم النابعة من تحالفهم مع السلطة التي يعينونها على عملية الخصاء العقلي وسياسة تحويل الناس إلى أشياء مضَّيعة بين هموم ومخاوف الغد.

غمزت رباب آية:

ـ يا لقدرة هؤلاء الناس على مضغ الكلمات!

ـ تفهمينهم أكثر لو أن عندك بعض الصبر وبعض الحب.

ـ هل هذه هي النجوم اللامعة؟

ـ في سماء حالكة السواد.

ـ وهل هذا هو اللمعان الذي ينتظر نجم علاء الدين أخيب الرجال؟

توضح في عيني آية بريق الرضا:

ـ ها هم كلهم يطلبون منه موالا من مواويله.. حتى السهروردي يستحثه.. اسمعي .. ومع السمع افهمي.

رأته يتوسط الجمع ويتريَّث حتى يصير الصمت عميقا ويطبق السكون، ثم سمعت الصوت الذي تعرف:

«طالب وداد الجمال وادفع حياتي مهر»

«موالي بيغني للنايمين يا أهل العصر»

«على اللصوص السمان والنهابين والهبر»

«على الزمان اللي خلاني كئيب وشريد»

«زمن الفساد الكبير والمداحين والفشر»

همست رباب وهي ترتعد:

ـ لن يلمع نجمه بل سيدق عنقه.

(١٣)

ضحك صاحب المقهى وهو يضع أمام صديقه الصينية النحاسية يتوسطها كوب الزنجبيل:

ـ زمن أغبر يا حاج.. هل العشق هو الآخر بالعافية؟!

تذوق الحاج عمران المشروب الحرِّيف مستطعما:

ـ لم تجد بنت الرفضي غير الجعبري.

جاء صوت من ركن المقهى:

ـ أنثى رخيصة.. دعوها تنطح الجبل العالي.

وقال زبون آخر وهو يتثاءب:

ـ وإن كان الذين رأوها يقولون إنها صاعقة الحسن.

لعبت حواجب صاحب المقهى:

ـ لكن علاء الدين يقول إنها في برودة الرخام في ليل الشتاء، وإن الرجل يحس بهذه البرودة وهو على بعد أمتار منها.

وقال الحاج وهو يتصفح الوجوه:

ـ مسكين علاء الدين.. امرأته التي جاءت وراءه من الصعيد سمعت عن نفوذ الوزير زياد وامرأته التي تلعب بالبيضة والحجر، فذهبت تشكوه إلى زينة هذه.. والأنثى ابنة الثلاثين وزوجة الوزير الذي جاوز الستين تهللت لذكر الرجل الذي ذاع بهاء رجولته مع أرج مواعظه التي تهتز لها الأفئدة وتنشط بحمياها العقول.. وما أسهل أن تغزل مثلها خيوط التدبير!

ـ هل تؤذي هذه المرأة علاء الدين؟

ـ ربنا يحمي الكل من تدبيرها وكيدها.

ـ بالله علىك يا حاج عمران احك لنا حكاية زواج وزير الحسبة من هذه النفاية من نفايات السلطان.

ـ يا جماعة انتظروا علاء الدين، لتسمعوا منه الحكاية منظومة في موال طويل عجيب.

ـ لا يا حاج.. لا صبر لنا فابدأ أنت.. علاء الدين في هذه الأيام يعمل حساب البصاصين ولا يكاد يظهر في مكان حتى يختفي دون أن يطيل أن المكث أو يواصل الإنشاد.

ضحك صاحب المقهى مسرورا من تحلق الأصدقاء من رواده حول الحديث طامعين في سهرة مسلية، وضم صوته إلى النداء العام:

احك لنا عن زينة الباردة برودة الرخام في ليل الشتاء، عاشقة واعظنا المحبوب.

ـ المتعالي على الفتنة.

ـ المهموم بمصير الأمة.

يحب الحاج عمران في هذه اللحظة، يتألق عندما يكون واسطة العقد، يكاد من يسمعه يرى المشهد الذي يصوِّره أمام عينيه، نابضا بالحياة، حقيقة واقعة.

قال السلطان: أنا أعرف كل مخازيك أيها اللص النهّاب، وهذه قائمة طويلة بها.

كانت النظرة من فوق الورقة التي يلوح بها فاحصة خبيثة، فتضاءل أمامها نائب وزير الحسبة مستخزيا في مذلة محسوبة، وقال للسلطان: وأنا ألوذ بشطآن عفوك أيها السلطان المنعم الذي لم تر مصر سلطانا

مثله ولا أحسبها في مقبل الأيام ترى مثله، وهذا كل دفاعي عن نفسي.

كان يعرف أن اللقاء لن يمر على خير ما لم يشعر السلطان بتضاؤل من يقف أمامه.. لا مفر لمن يمثل في حضرته من أن يعاني وطأة إحساسه المتضخم بذاته المتحكمة.. هذا مالك الذهب والسيف، صاحب الوقت الدنيوي، ذات مستفحلة تعاطت لسنوات طويلة خمرة السلطة التي ينتهي الأمر بمد منها ولو كان أتفه التافهين إلى التورم السلطاني.. الدقائق معه أطول من ليل شتوي بلا مدفأة.. هو ذا يتعاظم على الأريكة ويستمرئ الموقف: إن الذبح أيسر ما يجزى به لص مثلك يا زياد، امتدت يده إلى مال الأمة التي أنا مسئول عنها.. سرقت يا زياد؟

ـ سرقت.

ـ ارتشيت؟

ـ ارتشيت.

ـ اغتنيت؟

اغتنيت.

ـ تستحق الذبح؟

ـ بيدكم البيضاء.

ـ هل تعرف ما كان من أمر فؤاد الدين وزير الحسبة أمس؟

ـ بات مذبوحا.

ـ نستطيع أن نلحقك به إن كانت صحبته أوحشتك.

ـ ذلك في مستطاع السلطان.. لكن في قدرته فوق ذلك نعما لا تحصى ومآثر تخلد على الزمان.

ـ اذكر لي بعض هذه النعم.

ـ منصب وزير الحسبة مثلا.

ضحك السلطان فتبسم اللص الكبير مستروحا نهاية الرعب الكبير..

ـ وأين أضع هذه القائمة الكبيرة بفضائحك أيها الفاجر؟

ـ في أي مكان تختاره عظمتك.. في النار تأكلها وتمحوها أو في أي مكان يا مولاي.. في دبر عبدك إن شئت.

عاد السلطان يضحك حتى استلقى على قفاه فوق المسند السلطاني:

ـ رأيت في حياتك أرتالا من الفجار لكن مثلك نادر.

ـ والنادر يا مولاي خسارة في سيف الجلاد.

ـ لك زوجة.

ـ مستهلكة.

ـ لماذا لا تغيِّرها؟.. أراك لم تتعد من عمرك الستين وفيك نشاط ثعلب.

ـ لم أغيرها خوفا من لسانها يا مولاي.

ـ نقطعه.

ـ بورك لكم في يدكم القاطعة.

ـ ونزوجك غيرها.

ـ هذا هو العقاب الجميل الجدير بأعظم السلاطين، لا رأت مصر مثله ولا أراها تحظى بمثله بعده.

ـ نزوجك من حسناء، لكننا سنحتفظ في خزائن الملك التي لا يبلغها يد غير اليد السلطانية بقائمة مخازيك هذه، وبالقائمة الجديدة التي ستولد وتترعرع من منصب وزير الحسبة الذي نعهد به إليك.

ـ منتهى العدل، لكن من الحسناء؟

ـ صغرى بنات والي القاهرة.. وآية من آيات الحسن. ونغِشة.

ـ نعمة مشكورة.

ـ وحامل في شهرها الرابع.

لمعت عين اللص الكبير بالفهم والخنوع:

ـ هذا يا مولاي وفر في الجهد أحمده.

ـ علىك أن تحسن تربية ولدها.

ـ عندما تهل طلعته بعد خمسة أشهر سأكون خادما له مدى العمر.

ـ والآن اذهب فخذ إليك بديوان الحسبة وترفق في النهب، إن عيني ساهرة على حقوق العباد ومصالح البلاد.

ضج المقهى بالاستحسان وتلقى الحاج عمران التهنئة على حسن سبكه للحكاية بفرحة طفولية، لكنه في نوبة تواضع عاد يذكر علاء الدين ومواله الجديد:

ـ وأين ما سمعتم من موال علاء الدين الذي لم يسعد الزمان من لم يسمعه منه؟

ـ بسيطة.. اجمعنا على السماع في بيتك واعمل لنا فتَّة.

(١٤)

ـ كل هذه الحلاوة وشبابك يضيع في خدمة بيت شيخ أعماه الله عن جمالك؟

كانت المرأة تجس خصر هنادي بأطراف أصابعها وهي تكلمها في ركن دكان العطار، فقالت هنادي في استحياء:

ـ نحن غرباء في المدينة، والشيخ يأوينا أنا وأختي وزوجها الذي لا نفع فيه.

نقلت المرأة مضغة اللبان من شدق إلى شدق وهي تغمز بركن عينها صبي العطار:

ـ أختك كما قال لي هذا الصبي لا هم لها إلا مطاردة زوجها الذي انفلت عياره، فما بقاؤك في بيت لا مقام لك فيه أكثر من مقام الخادمة؟

ـ وأين أذهب يا خالة؟

ـ الدنيا واسعة ومليئة بالنعم.

ـ لا أعرف كيف أنقل خطواتي في هذه المدينة التي تخيفني.

ـ بيتي مفتوح لك.

ـ قلبك طيب، ذكَّرني بحنان أمي في طفولتي.

ـ وأنا أعرف من هذه المدينة ما لا تعرفين.

ـ لو لم تأكل الذئاب زوجي لما هان قدري على الدنيا.

ـ بنت حلوة مثلك تستطيع أن يعلو هنا قدرها فوق ما يصور لها أجمل أحلامها بالعز والمتع والنعمة.

ـ آخذ رأي رباب أختي الكبيرة، ثم أرد عليك.

ـ هي في شغل بزوجها عنك وعن الدنيا الجديدة.. فكِّري في نفسك ومصلحتك.. فكري في مستقبلك.. حرام أن يذوي كل هذا الحسن في بيت زاهد يتغدى دقة ويتعشى كلمات.

ـ يقولون إنه رجل مبروك.

ـ المبروك الوحيد في هذه الدنيا هو الدينار، باب النعمة.. وهل يدوم جمال أو شباب.. كوني عاقلة واصنعي ما تصنعه كل شابة جميلة ذكية فقيرة وحيدة في الدنيا.. دوسي الدنيا قبل أن تدوسك بلا رحمة، ولا تخيفنك شوارب الرجال، فالرجال لعبة.

ـ وماذا يقول عني الشيخ برهان الدين لو عرف؟

ـ يأكل دُقة ويتجشأ ويفتي بكلمتين ثم ينسى.

ـ وعلاء الدين؟

ـ ما خوفك من مخبول بلا ماض ولا مستقبل ومصيره إلى سيف الجلاد؟

ـ أرد عليك بعد أن أفكر.

وهما تخرجان من الدكان لعّب صبي العطار حواجبه عندما لمح المرأة تفك كيسها وتخرج قبضة نقود دستها في صدر هنادي قبل أن تذهب كل منهما في سبيلها:

ـ فكري في الدنيا الجميلة التي تنادي كل هذه الحلاوة.

(١٥)

ـ صباح الخير يا مفتاح الجنة.

ـ ما أظنك تقصد بهذه الكلمة تكريمي.

ـ ما أردت إلا أن أعلن اكتشافا.

ـ لابد أن على عادتك تريد بي سوءًا.

ـ اكتشاف يا رباب.. اكتشاف توصلت إليه الليلة.

ـ شيء جديد يتعلق بخيبتك؟

ـ احتملت من زماني كل صعب وتقبلت منه كل متعبة.. احتملت لأني منذ البداية كنت أعرف أن هذا الزمان المريض لن يجعل حياة مثلي مريحة.. وبالارتضاء الكامل توقعت الأسوأ قبل الشيء.. والشيء الوحيد الذي لم أحسب له حسابه هو صدمتي فيك أنت.. في مكان السلامة التي خيل إليّ عندما تزوجتك في لحظة تسُّرع أنها صفتك الغالبة، وجدت شيئا آخر مختلفا يصعب ابتلاعه، عقلة في الزور.

ـ ماذا تريد أن تقول بهذا الموال السخيف؟

ـ الليلة فقط توصلت إلى اكتشاف مهم أراح نفسي، فأنت يا عناب عمري مفتاح الجنة.

ـ مفتاح الجنة لمن؟

ـ لي أنا.

ـ أنت؟!.. أنت ترد على جنة؟!

ـ بقلبي رأيت المشهد.. رأيتني عند أحد أبواب الجنة مع أحد الأفواج التي لم تمر على الحساب، وسمعت من ينادي باسمي، وقيل لي: أأنت الصابر ابن الصابرين ومن كان زوجا لرباب؟.. فما إن قلت نعم حتى نودي في الملأ: افتحوا لهذا الذي كفَّر في الدنيا عن كل ذنب أوسع الأبواب وأدخلوه بالتكريم إلى مقام كريم..

ـ دون أن يسألك أحد على الأقل لماذا ركبت رأسك وهجرت أهلك وتركت البلد؟

ـ ما كانوا في حاجة إلى هذا السؤال فهم يعرفون أني كنت أبحث في هجرتي عن الإنسان.

ـ تبحث عن ماذا؟.. يشفيك الله أو لا يشفيك فهذا شأنه، لكني أسأل: ألم يكن في بلدنا إنسان غيرك؟

ـ ليس طلبي المسوخ الملفقة.

ـ صارت لك لغة غير مفهومة.. وأنا أعرف إلى أين تقود هذه اللغة أصحابها.

ـ لن تفهمي عني منذ اليوم ولم أفهم عنك، هذا قدري.

ـ أنت ناضج تماما للبيمارستان.

ـ لو حدث هذا لكان لك فيه أكبر الفضل، أما أنت فناضجة تماما لكي تسقطي عن شجرة حياتي كالثمرة العطنة.

ـ تحولت إلى متشرد.

ـ وتحولت إلى حنجرة.

(١٦)

موج من النشوات يعبر طينته كلما سعي إلى البوابة العطرة في بيت البهنسا، كان صلصاله يدخل الفرن.

وتتلفت لمقدمه ابتسامة طاهرة من روح فائقة الذكاء ساطعة القوة، وفي عرس أبدي الوشائج قهار للزمن يتلقاه من آية حديث عن عشق يظل يصفي النفس من شوائبها وأغلالها حتى تكاد تكون روحا خالصا يتجلى لها الجمال المطلق الذي يصدر عنه جمال كل جميل.

ـ أنت يا علاء الدين إنسان منعتق، أدخل داخل حقيقتك تحدث المعجزة.

ـ معك دائما تحدث المعجزة.

ـ غبت عنا في هذه المرة.

ـ عندي كما تعلمين سجانة.

ـ أهكذا تسميها الآن؟

ـ ترويضها يستهلك بعض الوقت.

ـ رباب تمنعك عنا؟

ـ يخيل إليها أنها قادرة على ذلك.

ـ تسد الباب بلحمها؟

ـ فأقول مدد يا أهل الرضا فتنفتح لي طاقة النجاة.

ـ تركتها غاضبة.

ـ ما قيمة غضبها إذا رضيت عني كرام عشيرتي.

ـ أوحشت عشيرتك.

ـ وأوحشتني أنوارها.

وفي ظل خميلة كاسية صارت اللغة شيئا أرقى من الكلمات، على حين تأدت إليهما من داخل البستان نفثات ناي شكور.

وفي الصمت الجليل فاضت نفسه بإحساس غامر بأن هذه اللحظة الروحية الكاملة ومثيلاتها يمكن أن تكون إيذانا بافتتاح عصر المستقبل الفردوسي الموعود الذي يتكلم عنه الأستاذ السهروردي، والذي يبدأ بعزة الروح الكوني في الإنسان المنعتق.. حتما سيظهر في هذا الكوكب الأرضي التعس إنسان يدق أبواب الجنة المشتاقة إلى الانفتاح له بقبضة شريفة القول والفعل.

(١٧)

قال صاحب دكان النحاس:

ـ الرزق الحقيقي لكل إنسان هو حياته، فسحة العمر المحدودة.

فابتسم علاء الدين قائلا:

ـ ومن يسرق منه هذا الرزق إنما يسرق منه كل شيء، ما وراءه وما أمامه.

تحيَّر حسن قليلا قبل أن يقول كلمته:

ـ أتعرف يا علاء الدين؟.. إنك تقول كلاما كأنه كان في نفسي دون أن أقوى على التعبير عنه بالكلمات.. عندما أتأمل حياتي وحياة كثير ممن أعرف أجدها فعلا مسروقة.. هذا عصر سرقة حياة الناس.. يكفي أن يظل الواحد منا طوال يومه مشغولا بمتطلبات معيشته، هذا موجود وغال وهذا غير موجود أصلا، إلى آخر حكاية كل يوم..

وقال علاء الدين:

ـ حتى ما يقدم للناس بعد شقاء الكد من فنون التسلية في المقاهي والموالد، رخيص وتافه ومدمر عن قصد.. هذه ليست حياة.. الحياة الحقيقية سرقها لصوص لا تراهم عيوننا.

فقال حسن مبتئسا:

ـ ولا تطولهم أيدينا.

قاطعهما صاحب الدكان في شيء من الغضب:

ـ إلى متى تجتران هذا الحديث الذي يطبع صداقتكما بالكآبة؟

قال علاء الدين بحماس:

ـ وهل أنت راض عن حياتك؟ هل تشعر يا حاج أنك حي؟

وسط الأباريق والطسوت والصواني اللامعة تبرق صلعة الحاج وهو يرد بامتغاص:

ـ يا ابني كف عن أسئلتك ولا تطيّر من دماغي فص الأفيون.

أفلت الرد من حسن:

ـ النوع الرديء من الأفيون فقط هو الذي يطير من الدماغ يا خال.

ـ أنا أتعاطى أحسن صنف واسألوا النحاسين كلها.

فابتسم علاء الدين وهو يغمز حسن:

ـ من واردات الأمير زياد؟

ـ شخصيا.

علاء الدين خايله شبح المرأة المتبرجة، ورن في سمعه صوتها الرخو النعسان قبل أن يسأل:

ـ وهل الصنف الذي تتعاطاه يا معلم هو الصنف الجديد الذي يحمل اسم حرم الوزير زياد؟

ـ نعم.. «أفيون زينة» أجدع صنف.

خرج علاء الدين بصديقه إلى الشارع:

ـ تعال نغتسل بكلمات العز بن عبد السلام.

ـ الآن.

ـ كلماته باب مفتوح للناس في كل وقت.

ـ أحيانا أشعر وأنا أستمع إليه بالخوف علىه.. ما أكثر كارهيه من المنافقين والندماء والمتاجرين بكلمات السماء، ورهط المداحين اللاعبين بالألفاظ والمعاني، وعلماء السوء!

يدخل علاء الدين دائرة الضوء متهلل الوجدان.

هذه الجزيرة الجميلة التي أسماها حب الناس «سلطان العلماء» هي واحدة من أكبر الجزر المضيئة التي تمسح عن نفسه كدر الظلمانية السائدة.

أخذ مجلسه هو وصديق له وسط الزحام وصوت العز بن عبد السلام يصك الأسماع ويلقف كل جعجعة الوعاظ ويعيد النبض متحررا متوثبا إلى عروق الحياة.

ـ هنا تأخذ الكلمة حقها.

قالها علاء الدين لصاحبه وهما يخرجان من الدرس إلى الشوارع.. مذا موعد التجوال في الأسواق والالتحام بالمواويل مع نبضة تحتية لا يراها أعمى القلب، حتى في عطن الأزقة، وأي ناد غير الظلمة يستحب فيه الكلام عن النور.

في الأسواق وهج من مواويله لا ينطفئ بعد انتقاله من حارة إلى مقهى ومن ساحة تجارة إلى ناصية يتسول عندها مجذوم.

ومن باب خفيض تخرج قصعة صغيرة في يد عجوز يشيع الابتسام في تجاعيد وجهها:

ـ اشرب وامض لحالك فإن في عطفتنا بصاصا لا نحب لك أن ينالك شره.. لبن رائب يا صاحب الموال.

(١٨)

يا ليل يا ستار، يتسلل إلى عطفة آدم وخجله من نفسه ينازع معضلته المرهقة، شبقه العاتي.

وكلما اقتربت به خطواته المتوجسة الحريصة على ألا يراه من يعرفه وجد نفسه يتخفف من صراعه المكبوت، حتى يتنفس بارتياح على عتبة بيت رشيدة ويدخل حيوانا كاملا.

ظهرت له واستقبلته بضحكة رجراجة كأردافها:

ـ كيسك ملآن؟

ـ مثل كل مرة.

ـ ما عندي لك الليلة ليس مثل كل مرة.

ـ واحدة جديدة؟

ـ وجبة ملوك يا صعلوك.

ـ وما الجديد فيها غير أنها جديدة؟

ـ صدمتها في زوج أكلته ذئاب الصحراء وتركتها هي لذئاب القاهرة أمثال حضرتك.

ـ صغيرة السن؟

ـ وبريئة الصبا كأن لم يكن لها زوج.

ـ تسمع الكلام.

ـ لكنها في حاجة إلى شيء من الصبر.

وفتحت له باب حجرة حتى دخل وردت الباب عليه بينما كانت تنهض لاستقباله في ارتباك يكشف حداثتها في المهنة؛ صبية في ركن الفراش متجردة إلا من قميص قصير.

فتأملته وتأملها في لحظة صمت، وهو يتساءل أين رأى هذا الوجه الحسن من قبل؟

وعندما عرفها ساخ قلبه بإحساس مرير بالحرج والدهشة والألم.. هذه هنادي أخت زوجة الصديق، لمحها من قبل في حوش الجعبري وكلَّمه علاء الدين عنها، ثم علم منه بعد ذلك أنها خرجت من البيت باحثة عن قدح عدس ولم تعد، ابتلعتها المدينة.

لم يلمسها ولا قال لها إنه يعرفها.. أنفق عندها ربع ساعة في حديث تافه متقطع ثم خرج تشيِّعه الدهشة في نظرتها التي لم تفقد بساطتها الريفية.

وتساءلت الابتسامة المهنية الصريحة في وجه صاحبة الماخور:

ـ مبسوط من البنت؟

كبت رغبته في أن يصفع وجهها الصفيق:

ـ باردة جاهلة.

ـ لم يقل هذا غيرك.

ـ ستنفر زبائن بيتك.

ـ الكل امتدحها.

ـ تخلصي من هذه الفلاحة، فلا بد أن لها أهلا من حملة الفئوس يبحثون عن الشرف الغالي.

هزأت رشيدة بكلامه بصراحة:

ـ لم يحدث في تاريخي الطويل أن جاء أهل واحدة من البنات يطلبونها، واعلم كما يعلم الكل أني مسنودة بأعوان الوالي الذين تنكسر عيونهم أمام دنانيري وتنكسر أمام رهبتهم عيون الناس.

(١٩)

لم تفهم عنه هذه المرأة منذ اليوم، ولا يمكنها أن ترى لموت العلاقة بينهما دلالة غير عجزه، ولا فائدة من أي جهد مع وعيها المعتم.

ـ صوتك الآن لا يكاد يسمع، وكان إذا وقع بيننا خلاف تسمعه بلدتنا من أطرافها.

كانت قد لحقت به في الحوش وهو في طريقه إلى الشارع، فتفادى تحرشها به في هدوء:

ـ كان ذلك خطأ مني، فأي خلاف معك لا يستحق أن يثور معه جدل.

ـ سبحان من هد حيلك وكسر شوكتك.

ارتسمت على وجهه ابتسامة مشفقة:

ـ صوتي الآن خفيض لأن تجارب الأيام علمتني حكمتها.. بانفعال تناولت طوق جلبابه البسيط في مخلبها:

ـ أتسمي انكسار نفسك وخيبتك حكمة؟

ترفق بها حتى خلص نفسه من قبضتها:

ـ يا رباب!.. إن ما بي ليس انكسارا.. كل ما في الأمر أن سخافاتك التي التهمت ما فات من عمري لم تعد بالغة من انفعالي أدنى درجاته.

جلجل صوتها في بيت الجعبري:

ـ أنت انتهيت يا علاء الدين، انتهيت وعلى الله العوض.

ـ انفضي يدك مني ما دام العوض على الله.. ما أحسنها فرصة لكي ترمي طوبتي.. أدخل وأخرج كما أشاء وقتما أشاء، وتنشغلين أنت بالفرن والكتاكيت، أو بالبحث عن أختك.

ـ لتدور على حل شعرك؟

ـ لأعيش حياتي الجديدة.

ـ وتغطس في البهنسا التي إذا ذكرت أمامك هي ومن فيها رأيتك تميل كأنك سقيت الراح.

هذا فعل أرج النسيم المطهَّر الذي يبلغني منها يا جاهلة، تنحي عن الباب وأقصري الشر.

نفثت غضبا سد الباب:

ـ إما أن تستسلم لإرادتي أو تنحِّيني عن الباب بالقوة.

ـ دعيني أخرج بالذوق.

ـ لن تخرج.

ما ينبغي له أن يحدث في بيت حبيبه الجعبري فضيحة جديدة يتفرج علىها الجيران، وما يدري كيف خايله فجأة وجه ابن الفارض الضاحك وكـأن إشـارة يده وحركة جسمه تشير علىه بالحل الوحيد الممكن.. فجأة وجد نفسه يتمايل أمامها وهو يصفق بيديه كما لو كان قائدا لدعكة ذكر، وإذا بصوته على الإيقاع السريع يعلو في وجه المرأة المبهوتة:

يا عاذل المشتاق جهلا بالذي
يلقى مليا.. لا بلغت نجاحا!
أتعبت نفسي في نصيحة من يرى

أن لا يرى الإقبال والإفلاحا!
كنت الصديق قبيل نصحك مغرما
أرأيت صبا يألف النصاحا؟

دقت المرأة كفا بكف في ذهول:

ـ الآن لا يرتفع صوتك بغير الهذيان!

لكن رغبته في الإفلات جعلته يسرع إيقاعه في الإنشاد والحركة:

إن رمت إصلاحي فإني لم أرد
لفساد قلبي في الهوى إصلاحا!
ماذا يريد العازلون بعذل من
لبس الخلاعة واستراح وراحا!

وبحركة سريعة من جسمه كله عند الكلمة الأخيرة راح منها وتلقفه الشارع كأن أرضه المبلطة بساط ريح.

وفي الشارع غنى مستروحا شذى خمائل البهنسا الندية:

وسرت بركب الحسن بين محامل
وهودج ليلى نورها منه ساطع
وناديت لما أن تبدى جمالها
لعمرك يا جمال قلبي قاطع
فبابك مقصود، وفضلك زائد،
وجودك موجود، وعفوك واسع

(٢٠)

قال الجعبري وهو يضحك ملء الحوش في ساعة الصباح الرطبة:

ـ قد يكون هذا هو الخلاص الوحيد للمسكين علاء الدين، أن يقع في عالم الحس ما رأيته أنت في المنام، تهيم رباب على وجهها بحثا عن هنادي!

وقال ابن الفارض:

لكأني لا أزال أسمع نداءها باسم هنادي ملء الوجود.

على حين يضحك الجعبري كثيرا وهو يتكلم:

ـ كلما ذكرت أمامي كلمة الصعيد تمثلت لي رباب.

وتبسم علاء الدين وهو يقدم لهما القهوة دون أن يفتح فمه بكلمة، فقال الجعبري:

ـ أنا لا أراك رجلا تتجاذبه صفاقة المادة التي تشده إلى أسفل ورهافة الروح التي ترفعه إلى الأعلى، بقدر ما أراك معنى في الوجدان العام.. لا أراك إنسانا يا علاء الدين، بل موفقا.

قال علاء الدين:

ـ مل معنى ذلك أن كل ما ينغص صفوي مين وأن آلامي لا قيمة لها؟

ـ عذاباتك، خارج حد التعاطف الأخوي، لا تعنيني يا صديقي الفلاح الفصيح.. لا قيمة لكل هذا في المحصلة النهائية.. أنت في آخر الحساب وعند الحقيقة موال لا رجل.

وأضاف ابن الفارض:

ـ ونهايتك نفسها في موعدها المحدد في علم الله لا تؤثر في هذه الحقيقة.

ـ أنا إذن موال لا رجل؟

قال ابن الفارض ويده على كتف علاء الدين:

ـ الحق ما يقول لك برهان الدين، لكني ما زلت أتصور رباب هائمة وراء هنادي في حضيض القاهرة.

بالباب ظهور ماجت له أنفسهم بالفرح، وحضور يشع حقيقته السالكة المضيئة كما لو كان بزوغه في تلك اللحظة دفقة نور مطلوبة في وقتها لتصدم حضيض القاهرة كلما جاء ذكره أو فاحت عفويته.

لحيته البيضاء تموج فوق صدره العاري، وعصاه تشير نحوهم؛ إذ يتقدم مسبوقا بإشعاعه وكأنه يكمل حديثهم:

ـ المهم يا علاء الدين هو الموال.

الموال الأكبر من ألف شيخ طريقة.

المهم هو كلمتك التي تقولها مسلما صحيح الإسلام لله، أي إنسانا صادق المحبة للضعفاء، وفي موقف جهاد.

(٢١)

جلس على طرف الفراش مطرقا حتى ناوشته هي باليد والكلمة لتخرجه من صمته، ذلك الزبون العجيب الذي جاء مرة أخرى ليفتح كيسه ولا يأخذ ما دفع ثمنه.

كان في الطريق إليها قد تصور أنه رتب أفكاره، وصار قادرا على إقناعها، أما الآن ومع معاناته لفحش أصابعها الراغبة في إنجاز العمل والتخلص منه تأهبا لغيره من زبائن البيت فهو يعاني العي والحيرة

ويدرك صعوبة ما فكر فيه وارتضاه.
ـ ما هي حكايتك معي؟
ـ حكايتي معك صعبة، وما لم يؤازرني منك حسن الإصغاء ورجاحة العقل فلا أمل لي، وإنها لخسارة.
ـ خسارة لمن؟!
ـ لي، ولك.
ـ لي أنا؟.. ماذا بقي فوق ما خسرت؟.. إن ما انكسر لا يجبره كسره.
ـ أقول لك إن إصلاح ما حدث ممكن.
ـ كيف؟
ـ تأتين معي.
ـ وأين تذهب بي؟
ـ إلى بيتي وحضن أمي.
تأملته بدهشة، غير فاهمة:
ـ ماذا تقصد؟
ـ عديني ألا يرتفع صوتك فتسمعنا رشيدة.
ـ تكلم يا رجل.
ـ أنا أعرفك.. وأعذرك.. وأمد لك يدي.
ظهر على‌ها الخوف:
ـ تعرف من أنا؟
ـ أنت هنادي أخت زوجة صديقي الحبيب، وأنا الفقير حسن أبو زيد صديق علاء الدين.. وأريد أن أتخذك زوجة.
مُلئت نفسه إشفاقا على‌ها في رعبها الذي لم يسيطر على‌ه غير خلوص النية الناطق في عينيه وسكينة النفس المائلة في صبره على تخبطها، خائفة من كل شيء ومن كل إنسان، من رشيدة، من علاء الدين، من رباب، وخائفة أكبر الخوف من نظرة يلقاها بها الشيخ برهان الدين.. وعندما أهوت على يديه في نهاية انهيارها بقبلاتها ودموعها، قال لها في صوت يملؤ رقته وخفوته حزم خشعت له نفسها:
ـ البسي فإني مقتحم بك هيلمان رشيدة وخارج بك الساعة.
وهي تلبس أشرق له وجهها بابتسامة بعثها الأمل:
ـ إن عندها «فتوّة» يظهر في الملمات، فظيع القسوة، ولها أصدقاء من أهل فوق.
ـ أعرف كل هذا، وأعرف قبله فضل الله.
بسعادة غامرة مشوبة بالرهبة نفذت أمره عندما قال لها:
ـ استري وجهك أيضا.
ـ هكذا يا حسن؟
ـ هيا بنا يا امرأتي.

(٢٢)

في مدخل الماخور تصدت لهما رشيدة وتبيَّنت الحقيقة من ملبس هنادي وهيئتها:

ـ إلى أين العزم؟

ـ على بيتي.

وجهت المرأة كلامها إلى هنادي معرضة عن تصدي حسن لها:

ـ قلت لي مرة إنك كنت أحسن البنات رقصا قبل أن يمنعك زوجك الذي لم تعجبه نظرات الرجال إليك في حركة الرقص، لكنهم ظلوا في البلد يقولون لك إن خير ما تصلحين له أنت ومروان أن تشتغلا في الموالد والأفراح طبالا وغزية، فإلى أين أنت ذاهبة اليوم؟!

قال حسن مرة أخرى:

ـ إلى بيتي وحضن أمي رشيدة.

ارتفع حاجبها المنتوف في تعبير عن الدهشة والسخرية:

ـ بيتك؟!.. هل تركت صنعة النحاسين لتنافسنا على آخر الزمن؟!

ـ هي منذ الساعة زوجتي أمام الله والناس.

رنّت ضحكة ملأت البيت، فاضحة وقاسية:

ـ وهل يعرف خالك أو تعرف أمك أصلها وفصلها؟

ـ معرفته هو أو غيره لا تغير من الأمر شيئا.

ـ وأمك؟!

ـ لا تذكري أمي على لسانك إن أردت أن لا أخنقك، وأفسحي لنا الطريق.

ـ بعد أن تحسن الإصغاء إلى ما أقوله لك الآن.

ـ هاتي ما عندك وأسرعي.

ـ لن أسكت على فعلتك.

ـ افعلي ما بدا لك.

خيوطي واصلة إلى فوق.

ـ يقطعها الحق بإذن الله.

ـ في وسعي أن ألفق لك تهما خطيرة تودي بك.

ـ لفقي ما شئت، هيا بنا يا امرأتي.

وتقدم بصاحبته من باب الخروج فصرخت المرأة فجأة:

ـ النجدة يا تهامي.

ظهر من سلم هابط في العمق عملاق غزير الشارب أصلع الرأس في سروال واسع أسود بينما ينضح بالعرق نصفه الأعلى العاري، وفي نظرته المستكشفة غضب جاهز:

ـ ماذا فعل يا معلمتي؟

ـ وقح في حاجة إلى تأديب.

ـ لا يريد أن يدفع؟
ـ يريد أن يأخذ الجمل بما حمل.
ـ يأخذها؟!.. حقا إن هذا آخر زمن.
وتقدم من حسن في خطوة بطيئة خطيرة:
ـ هل تجيد أمك الصراخ على موتاها؟
سألت هنادي في غضب:
ـ هل أصرخ فأجمع علىهما الناس؟
ـ بل اسبقيني على طريق بيت الشيخ برهان الدين.
قال لها حسن ذلك ثم صرخ في الماخور صرخة رهيبة:
ـ مدد يا سهروردي.
والتحم الرجلان بينما كانت رشيدة تتلقى في بطنها ركلة فظيعة من قدم هنادي طرحتها بعيدا عن الباب.
وهو يوقد نارا يترنم السهروردي أمام صومعته الصحراوية:

لا تسقني وحدي، فما عودتني
أن أشيح بها على جلاسي
أنت الكريم، ولا يليق تكرما
أن يعبر الندماء دور الكاس!

تهللت غزالة عن قرب وكأن في عينيها اللطيفتين سؤالا يرمق النار والإنسان.
كلمتها النار:« إن كان عندك ذوق فما أحسن أن تهتز نفسك بالكرم الغزلاني ليطعم ضيوفنا من لحمك اللذيذ!».
وكلمها الإنسان:
ـ يا ظبية لا تخيفنك حماقة الكلمات النارية.. نحن وإن لم يكن عندنا من الزاد غير القديد والجبن القديم لا نشوي أحبابنا في البرية!
أحنت الغزالة جيدها وبحثت في الرمال حتى خرجت بعود يابس وجاءت به فقدمته إليه بحركة رشيقة وهي تساقيه بلحظها الود الصافي، فلاطف بيمناه جبينها الذكي وهو يتناول منها عود الحطب ويضيفه إلى رصيد النار مترنِّما:
ـ تعال يا حطب، تعال متهللا لنوقد فيك نارا تحرقك، هل أجمعك بيدي أم تجمع نفسك لي؟!
لاحت من الأفق شخوص ثلاثة فتقدم الإنسان والغزالة في اتجاههم خطوات، ثم توقفا في انتظارهم يشملهما سرور واحد، وقال الإنسان السهروردي:
هؤلاء يا صديقتي الحسناء هم الظريف الرائق، واللطيف الفائق ابن الفارض، والثائر العاصف والرعد القاصف الجعبري، وفتاهما الفلاح غازي القاهرة على قدم التجرد، علاء الدين صائغ المعاني الجميلة.
تواثبت الغزالة حول شيخها في رقصة رشيقة كأنها قصيدة حفاوة، تعلو فيها حتى لكأن السماء تحتويها ثم تتلقاها الأرض حفية بها.
وكوَّر ساكن الصومعة يديه حول فمه ونادى:

ـ مرحبا بالنسيم، والعاصفة، والمستقبل.

وعندما اكتمل الصفو بوصول ضيفين آخرين تحلق الجميع حول النار متهللين، وربضت الغزالة في الحمى نضاحة بالرضا.

وقال أحد الضيفين بصوت تقطر منه السكينة:

ـ ما أشهى القديد المسخن على الحطب على الطريقة السهروردية!

تأملت الغزالة هذا الشيخ بفضول دفع السهروردي إلى أن يقدمه لها:

ـ هذا يا صديقتي الحسناء ضيف مصر الكبير، سلطان العارفين، وبحر الحقائق.

تبسَّم الشيخ ولاطف جلد الغزالة بأصابع حساسة:

ـ يقدمني إليك وقد التقينا من قبل أنت وأنا، وعشقت لحظك الفاتن، وقرأت علىك ديوان ترجمان الأشواق.

صارت الغزالة أخف من فراشة وألطف من شعاع، فناجاها الشيخ بذلك الصوت الرقيق الآسر:

ـ هل تذكرين؟.. على رُبًا الأندلس التقينا، قبل عهد الفتوحات المكية.. وبينما كان قطيع كبير من الفقهاء يصدمونني بشبهاتهم ويتهمونني بالزندقة، فهِمت أنت مذهبي وشرحت للجهال كيف أن الحقيقة الوجودية الوحيدة هي الإرادة الكونية العلىا التي تفيضِ على الكائنات كلها وتشيع فيها حركة الحياة، وأن الوجود في كل ما سوى هذه الحقيقة الوحيدة لا يتحقق إلا بمقدار ما تفيض هي علىه من روحها.

قال له لحظ الغزالة:

ـ إني أعرف يا محيي الدين بن عربي وأعرف ما صنع بك علماء السوء.

ناجاها عن قرب وهو يمر على ظهرها الحساس بأصابعه الرقيقة:

ـ ما أكثر أعداء الحقيقة، وخاصة أولئك الذين يحسبون أنهم يحسنون صنعا!.

وقال الجعبري:

ـ يطويهم العدم وتبقى الحقائق.. ويا غزالتنا هذا الضيف الآخر هو رجل خير ما وصف به أنه فقيه النفس لا فقيه الحفظ.

قال لحظ الغزالة:

ـ إني أعرف العز بن عبد السلام سلطان العلماء.

ونفخ السهروردي في النار:

ـ إن الذئاب إذا رأت هذه الغزالة المباركة تتحاشاها وتولي عنها وذيولها بين سيقانها.. إن مددها مأمول وفيضها موصول.

قال العز بن عبد السلام:

ـ وما الذي يعاشرك ولا يتواصل فيضه ويرجى مدده؟

ـ لك كلمات عظيمة تحفر مسراها وينتعش بها القلب.

وتواثب لهب النار متأججا ناطق اللهفة: «هاتوا المزيد من قديدكم ليسخن فوقي وتطعمون من جوع!».

ناولوها الباقي من عشائهم وتركوه لحرارتها وهبَّوا خفافا، وتمطت بينهم الغزالة السهروردية، وصفق ابن عبد السلام على نسق لطيف وهو يستحث علاء الدين بنظرة بلغة الرقة:

- حي على الرقص.

وتفتحت كالزهرة أصابها الندي رقصة الذكر، وأنشد صاحب المواويل من شعر ابن عبد السلام:

إن السماع صفاء نور صفوته
يخفى ويحجب عمن قبله قاسى
نور لمن قلبه بالنور منشرح
نار لمن صدره ناووس وسواس
راح وكاساتها الأرواح، فهي على
قدر الكئوس تريك الصفو في الكاس!

ـ لم يبق إلا أن تلبسها هي الأخرى خرقة التصوف على الطريقة السهروردية.

قالها ابن عربي متهلل السريرة، وتمطت الغزالة وهي ترنو إليه آمنة في الحمى.

ـ كما لبسها اثنان من أبنائي يقولان لي كل يوم:

لماذا لا تلبسها أنت الآخر كما لبسها عمنا العز بن عبد السلام!

ـ وما ردك على سؤال الولدين؟

ضحك السهروردى وهو يرفع عن النار بعض القديد الساخن:

ـ من الأرواح ما لا حاجة به إلى شعار.

أجاب ابن الفارض:

ـ لكنني مع هذا أنظر إلى الأخ الكبير السهروردي فأرى فيه جامع مواهب العلم والروح والعمل، بارك الله لنا في عمره المديد وفي نفحاته.

فجأة توقف علاء الدين عن النفخ في النار ورفع رأسه وأشار ناحية الغرب:

ـ وهذا الضيف الرذل، ماذا يلبسه السادة الكرام؟

من الأفق الغربي تدفق في اتجاه النار ذئب كبير الجرم في اندفاعاته ثقة في النفس، لم تلبث أن تكثرت عند حافة دائرة الضوء التي تبتعثها راكية النار.

أتلعت الظبية عنقها في فضول، وهمس علاء الدين:

ـ عسي ألا يكون طليعة.

في سكينة نفس تامة قال ابن عبد السلام للسهروردي:

ـ وهذا، كيف نلقاه؟

قال ابن عربي وهو يتناول عودا هشا من الحطب لم تكد النار تمس طرفه:

ـ لعلنا ندخله النار.

ولمس ابن الفارض بيده الحساسة عنق الظبية:

ـ لا تراع يا جميلة.

انتقض برهان الدين الجعبري واقفا وخلع الجبة وشمر عن ساعديه:

ـ أنا كفيل بابن الخسيسة.

والذئب يطوف حول النار وهو يسمع حسيسها، ولعينيه على حافة الضوء وميض سيء.

تقدم الجعبري خطوات في اتجاهه فأدهشه بهذه الجرأة وأوقف حركته، ثم لوح له وناداه:

أقبل يا ابن آكلة الجيفة تلقى وعدك.

لم يتحرك الذئب وإن ظل في وضع التحفز، وفمه الكريه فاغر، فهزأ به وهو يتقدم نحوه خطوة أخرى:

ـ ألا تتقدم؟

والتفت مبتسما نحو الظبية التي ترمق الموقف:

ـ أترين يا حلوة المعاني كم هو خائف منك!

صار الآخرون كالهلال حول الظبية، وبدا على الذئب أنه يفكر في الانفلات، ولوى عنقه فلم يعد يظهر من سحنته الدنيئة غير ومضة في ركن العين ناقمة، لكن الشيخ برهان الدين تقدم منه مسافة أخرى:

ـ تعال يا جبان.

ووقع الالتحام إثر وثبة أخيرة من الشيخ تماسك بعدها الذئب والإنسان.

واحتدم القتال وأنياب الذئب بارزة، لكن عنقه القوي محكوم بقبضتي الرجل الذي كان صدره يدمي كلما طالته المخالب.

وإلى هذه اللحظة كان الغريمان شبه منتصبين أحدهما في حضن الآخر، فلما تمكن الإنسان من إسقاط الوحش إلى الأرض جثم فوقه في وضع الركوع ولا تزال قبضتاه تشدان على العنق الراسخ.

وعلى مهل تزايلت مقاومة الذئب وفترتة حركاته ومالت أطرافه إلى الهدوء، ثم صكت حشرجاته المتخافتة سمع الظبية قبل أن يقع سكون عميق نهض خلاله الإنسان المنتصر وهو يتأمل بقع الدم على قفطانه بابتسامة هانئة.

وأقبل برهان الدين على رفاقه وهو يمسح الدم عن صدره، ونهضت الظبية وتمطت وهي ترمق جثة الذئب الهامدة على الرمال.

(٢٥)

عندما ذاع الخبر قال الحشاشون في اكتئاب إن سعر الصنف لا محالة سيرتفع، فقد عرفت القاهرة قبيل صلاة الظهر أن وزير الحسبة وجد قتيلا في فراشه ومكفنا بدمه.

وقال الحاج عمران لمساطيل المقهى:

ـ إن الحراسة المشددة على بيت الوزير زياد تضع في خانة الاستحالة تصور أن القتلة جاءوا من الخارج، والقاتل في هذه الحالة هو أحد اثنين لا ثالث لهما.

ـ السلطان ومن؟

ـ وامراة الوزير زينة.

وبعد صلاة العصر دخل أزهري من أقارب خال حسن دياب النحاس وهمس في أذن قريبه المهموم بمصير تجارة الحشيش بعد مصرع الوزير:

ـ يقال إن المرأة زينة تكلمت عن مؤامرة كبرى.

ـ مؤامرة ضد توفير الحشيش لبني آدم؟

ـ بل ضد السلطان ورجالاته.

ـ هل سمعت شيئا عمن تتهم؟

ـ تهامس الناس في الأزهر بأنها ذكرت بعض الأسماء، وعلى رأس من توجه إليهم الاتهام واعظ جامع مصر.

ـ الشيخ برهان الدين الجعبري؟!

ودقت أم حسن بعصاها باب حوش الجعبري:

ـ يا رباب.. اخرجي لي، فإن لي معك كلمة.

على حين لعلع صوت رشيدة في الحي:

ـ سمعت واحدا من زبائني اسمه حسن أبو زيد ينقل عن صديق له اسمه علاء الدين السوهاجي أنه قاتل الوزير ولو دفع حياته ثمنا لفعلته.

وانتشر في المدينة من بعد صلاة العشاء أجناد الوالي يصرخون في وجوه الناس ومعهم قائمة طويلة بأسماء وعناوين، وصاروا يقولون لكل من يلقونه:

ـ الويل لمن يخفي عنده واحدا من هؤلاء السفاحين أو لا يبلغ عنه.

ومرة أخرى باتت القاهرة مرتجفة الأوصال مهدودة الحيل مشدودة العصب، مدينة تجمعها طبلة، وتفرقها صيحة، أو كما قال السلطان.

(٢٦)

خرجت رباب من حجرة الفرن بعد الغروب عندما صفق في الحوش رجل وارتفع صوته يسأل عن علاء الدين.

ـ نعم؟

ـ علاء الدين السوهاجي الذي يقيم هنا موجود؟

ـ إنه لا يعود إلى البيت كثيرا في هذه الأيام.. يشطح وراء بعض مشايخه بالأيام والليالي.

ـ أنت امراته؟

ـ يا حسرة!

ـ بمجرد عودته يحضر إلى ديوان الوالي.

ـ لماذا؟

ـ مطلوب.

ـ هل صدر عنه ما لا يرضي؟

ـ لا أعرف أكثر غير أنه مطلوب، والأحسن له أن يأتي برجليه بدلا من أن يجيء من يجرونه على وجهه.

مدت له يدها برغيف لم يفقد كل حرارة الفرن:

ـ قل لي إن كنت تعرف الموضوع يا رجل يا طيب.

ـ قلت لك إني لست أكثر من مرسال.

ـ هل في الموضوع امرأة؟

ـ أنت كثيرة الأسئلة.

ـ هل تتفضل وتقبل رغيفا ثانيا بعد أن فتكت بالأول؟

ـ هاتي، فإن خبزك شهي كأنه ليس في حاجة إلى غموس.

ـ هل يسجنون علاء الدين؟

ـ الذي يحدد مصيره هو نوع الاتهام، وقد يكون كل المطلوب هو أخذ أقواله.

ـ ربما يتعلق الأمر بأختي المختفية؟

ـ وحياة هذا العيش من غير غموس أنا أجهل الموضوع.

ـ عند حضوره سأبلغه، توكل على الله.

تركها واجمة وانصرف وهو يزدرد آخر لقمة.

وأدهشها أنها لم تشعر بالارتياح أمام فكرة سجن علاء الدين التي أخذت تطوف برأسها، بل امتلأ قلبها بالخوف عليه والرغبة في حمايته، ذلك الغادر الهاجر كاسر نفسها.

ونفضت عنها وجوم اللحظة، وشدت قامتها وهي تعود إلى حجرة الفرن.

وتساءل علاء الدين عندما جاء وعرف الخبر:

ـ ديوان الوالي؟.. هذا مكان لا أحب أن أدخله.

ـ هل تتوقع أن ينالك أذى هناك؟

تأمل قلقها بشيء من الدهشة قبل أن يرق لها صوته:

ـ آكل لقمة قبل أن أذهب.. هل كان مسلحا؟

ـ حاجب غير مسلح أكل لقمة لا يستحقها.

ـ وأنا؟.. ألا أستحق لقمة؟

وضعت أمامه الخبز الطري والطاجن الفخاري المكسور تفوح منه رائحة اللفت المخلل:

ـ ماذا فعلت ليأخذوك؟

ـ أقول مواويلي في الشوارع والمقاهي.

ـ هل هذا هو كل شيء؟.. ماذا فعلت؟

ضحك وهو يستفز مكمن قلقها:

ـ يظهر أن قانونا جديدا يمنع الحب قد صدر بعد أن كنت قد أوغلت فيه على حد لا يرضي الوالي ولا يرضيك!.. أنت والوالي الآن جبهة واحدة، والله المستعان.

التقى نظرهما.. هل يسعدها أن يهان؟.. هل ترضى له أن تحول قضبان زنزانة بينه وبين ذلك العالم البعيد الذي تجهل كل شيء عن لذائذه؟.. هل هي تكرهه؟

ارتج الباب تحت ضربات شديدة فالتقت بين الزوجين نظرة أعمق وأوضح، وهمست رباب:

ـ ماذا نفعل؟

ـ افتحي لهم.

ـ ليأخذوك؟

ـ نظرت من شق الباب وعادت هامسة:

ـ هما اثنان فقط.

ـ من الأجناد؟

ـ بكامل الهيئة والسلاح.. ليت الشيخ برهان الدين كان معنا في هذه الساعة.

عاد الباب يرتج تحت الطرق ففتحه علاء الدين:

ـ أهلا وسهلا، وخيرا إن شاء الله؟

ـ معنا في الحال ولا تزد كلمة.

لكن الجندي الذي ألقى هذا الأمر الصارم لم يكد ينتهي منه حتى أسقطته إلى الأرض فاقد النطق

والحركة ضربة من الخلف، وظهر برهان الدين مشمر الكمين هادئ الصمت والكلمة:

ـ ما الخبر؟

قفز علاء الدين إلى الرجل الثاني وقيد حركته بين قبضتيه غير مكترث بمقاومته اليائسة، وكان الذي أجاب عن السؤال صوت رباب من فوق كتف زوجها:

ـ لن تطوله هذه الأيدي القذرة أبدا.

فقال الشيخ برهان الدين:

ـ دع لنا هذا أيضا يا علاء الدين وانطلق أنت راشدا إلى مأمن؟

أسلم أسيره إلى الشيخ الذي عصر الرجل بقوته الخارقة حتى أسقطه إلى الأرض عند قدميه.

وانحنى علاء الدين قبل أن يخرج فقبَّل كتف الشيخ، ثم التفت إلى المرأة رافعة في يدها عود الحديد الذي تستعمله في الفرن تأهبا لمساندة الشيخ عند الضرورة:

ـ ما أجملك يا رباب وسلاحك مرفوع من أجلي!

ـ انطلق إلى مكان لا يخطر ببال أحد، وحاسب على نفسك.

والتقت عيناه بعينيها في عناق قبل أن يختفي.

المساطيل يهومون للنوم على دكك المقهى في بلادة، وغياب المعلم عن مقهاه يتركه لنفايات الضياع ويجرده من الروح.

وحي النحاسين ساهر على العادة، لكن علاء الدين لم يعثر على الصديق، وعندما قصد البيت لم يجد غير الأم مقعية في المدخل وذقنها يعتمد ركبتيها وهي تحدق في الفراغ بحدقتيها المنطفئتين.

أخذ يدها بين يديه وحدثها بما كان ثم قال لها:

ـ أعلم أن بيتك ليس المكان الآمن الذي يمكن أن أختبئ فيه بعد الليلة، فلابد أن يخمنوا أن هذا البيت هو الملجأ الذي أفزع إليه.

لننتظر مقدم حسن لعل عنده رأيا.

لم يكن عند حسن هو الآخر رأي قاطع، وعندما التف الثلاثة حول لقمة العشاء قالت الأم وهي تتحسس وجه علاء الدين بأصابعها العجفاء الودود:

ـ تبيت في حضننا الليلة، والصباح رباح.

قبيل الفجر توضأ الصديقان وانتظرا الأذان، لكن سبقته دقات شديدة على الباب وضجة أجناد، وارتفع صوت صارم:

ـ افتح بالذوق وأرحنا وأرح نفسك، افتح يا ولد.

تلمست يد الأم قضيبا ثقيلا تعرف أنه مستند إلى الحائط في الركن، ومن وراء الباب سأل حسن:

ـ من أنتم؟

ـ أنت حسن؟

ـ أنا حسن.

ـ سلمنا الأمانة.

ـ أية أمانة؟

ـ الفلاح طويل اللسان وربيب الجريمة.

ـ لا أعرف فلاحين ولا أرى معنى لهذه الهجمة.

ـ هو عندك.

ـ ليس في البيت غيري أنا وأمي.

ـ هل تريد أن نكسر الباب ونأخذك أنت وأمك؟

همست الأم وهي قابضة على العصا:

ـ كم يكون عددهم في العادة؟

وهمس علاء الدين وهو رافع يديه بين طبلية العشاء:

ـ اثنان أو ثلاثة.

أصدرت الأم أمرها في ثبات:

ـ افتح الباب ولنتلقاهم بفجاءة تسمح لعلاء الدين بالانفلات.

تردد حسن في شيء من الحيرة:

ـ قد يكون عددهم أكبر، وهم مسلحون.

واتجهت نظرته نحو صديقه:

ـ هنادي عند الجيران تحضر ولادة الجارة، هل تتسلق إليهم السطح؟

لا، لنفتح والله معنا.

ولم يكن عند حسن وهو يفتح الباب سلاح غير هزة النخوة وقوة ساعديه، وبجذبة فجائية شد أحد الرجلين إلى الداخل فألقاه على وجهه فوق تراب الدهليز وشل حركته، بينما كان الرجل الآخر يشهق وهو يتلقى صدمة مزدوجة من ركلة أوجعت بطنه ومن قرص الطبلية الذي ضرب به علاء الدين وجهه في نفس اللحظة.

انفتح طريق الخلاص في مثل لمحة البصر، فألقى علاء الدين نظرة أخيرة على المشهد الذي يخلفه وراءه قبل أن ينطلق إلى قدره، تاركا صديق المدينة والأم العظيمة رافعة في يدها السلاح تحت أعراش السقف الخفيضة.

(٢٨)

ألقى على المنظر العام للمدينة الهاجعة نظرة فاترة قبل أن يتدفق من الصخور إلى الرمال في سفح الجبل الثاني من المقطم، فلما بلغ الحجر الكبير البارز على مشارف المدق وجد فوقه الغزالة نائمة تحت ندى الفجر.

ـ صباح الخير يا مباركة.

فتحت عينيها في هدوء وتأملته قبل أن تدب حركة الحياة في تكوينها البديع.

ووثبت إلى الأرض وتمسحت بساقيه في فرح قبل أن تتواثب حوله في رقصة عفوية وهو يسعى في اتجاه نبتة صبار عجيبة النضرة، فقال لها:

ـ قوديني إلى بؤرة المدد.

أسلمته إلى صاحبها ثم قبعت أمامها ترمقهما بنظرة سعيدة، فقال له شهاب الدين السهروردي ببساطة:

ـ القاهرة هي الأخرى يا علاء الدين فقدت قدرتها المنعشة، لكنها ليست جثة هامدة، ولن تكون.

ـ ضاقت بكلماتي المتواضعة.

ـ هل أذهلك سعيها إلى البطش بك؟

ـ لكني سأظل أسيرا لما وجدت عند مصابيحها المتوقدة من الوفادة وما منحني بسطاؤها من الحب.

ـ إنها في محنة، فهي منذ استنامت للجمود وركنت إلى التقليد، فقدت قدرتها على ا لإبداع، والنبض الحر فيها قليل يتوارى.

تأمل كلمات الشيخ قبل أن تند عنه زفرة:

ـ لا أكاد أتصور أني الآن طريدها.

ـ إن أخرجوك منها فكيف يخرجون كلماتك من ضمائر الناس؟

ـ الآن يدقون الأبواب سائلين عني وفي أيديهم السلاح، لكني لن أسلو أحبابي، هناك ولا طاقة لي على فراقهم.

التقت نظرة السهروردي بنظرة غزالته والابتسام مشرق وجهه الصافي:

ـ ألم أقل لك إن شوقه إلى الحق آخذ بزمامه؟

قالت العيون النُّجل مؤمنة: «هكذا قلت لي».

ـ ألم أقل لك إن صلابة الكلمات من صلابة الرجل؟

قالت العيون النجل مؤمنة: «هكذا قلت».

ـ ألم أقل لك إنه لم يخلق ليسكن صومعة؟

فقال علاء الدين ونفسه تفيض بالرضا:

ـ وهل كان من المعقول أن تكون هذه هي نهاية حكايتي مع القاهرة.

قال الشيخ:

ـ في هذا الحمى لن تطولك يد باغية، أما حين يهزك الشوق إلى صحبة الأحباب ومعانقة الخطر فإن في كل خطوة تخطوها إليهم بكلماتك بركة صدق وأجر جهاد.

(٢٩)

في حمى الروح الكوني الساري في الوجود هبت نسمات حملت علاء الدين على أجنحتها الرطبة إلى غفوة رأى فيها حلقة من رجال عراة متلاحمين في هياج حول بؤرة ضوء ترقص فيها على إيقاع مجهول المصدر هنادي وزينة عاريتين، وبينهما نبوت طويل ينغرس طرفاه في سريتهما ويتماوج في الضوء مع بهيمية حركة الرقص.. وفجأة اتسعت جدران الماخور من كل ناحية فشملت شوارع وساحات وأسواقا تتزاحم فيها أرتال من أشباح آدمية عارية هي الأخرى، تسعى بحركة هلامية على نفس الإيقاع الغامض المصدر.. وظلت نفسه تجاهد بمعاناة مرهقة حتى طمست كابوسية المشهد، وإذا به يشهد عن بعد حدقتي أم حسن الخاويتين وهي قابضة بيديها المعروقتين على عصاها المرفوعة، وفي وجهها دعاء له جعله يندفع نحوها في استبشار فائق، وعندما صار أمامها لم يجدها وحدها بل لمح وراء كتفها قضيبا من الحديد مرفوعا هو الآخر بيد امرأته، ووراء رباب أمة من نساء كاسيات مثلها بالسواد وفي وجوههن صرامة.. ولم يكد ينتبه إلى أن الإيقاع الأول الشهواني قد تبدد حتى شجته رنات عيدان موقعة تمحو الدمامة وتفرض الجمال وتنادي بالرجاء على آخر المدى.

وتنبه من غفوته فاعتدل وكأن يد آية الرقيقة المضيئة التي كانت آخر ما رأى في منامه لا تزال تلوح له بالترحاب أمام وجهها الذي تتجلى في بهائه نعمة الحب.

ورأى الفجر وليدا على مشارف الآفاق، وثلاثًا من النسوة ينحدرن في اتجاهه، إحداهن سبّاقة، وإحدى الأخيرتين تعتمد على كتف صاحبتها وهما تتبعانها في بطء.

نهض في وثبة، وإلى جانبه رأى السهروردي متدثرا بحرام خفيف، وقد انتظمت أنفاسه في النوم، وتقدم في اتجاه الموكب النسوي الصغير المقبل وهو متهلل.

سقطت هنادي على ركبتيها أمامه، وأيقظ نشيجها الغزالة التي طاب لها الرقاد غير بعيد من شيخها.

واحتوى هنادي حضنه الرحيم، ومن فوق كتفها تبين امرأته ساعية نحوه وهي تقود الشيخة العمياء.

نفثت هنادي عارها في بكائية، وأراحتها يد علاء الدين وهي تمر بالغفران على رأسها، ولامسها جسم الغزالة وناجاها لحظها ناطقا بالعطف والرحمة.

وتقدم من أم صديقه، وركع أمامها فتناولت وجهه بين يديها وتحسسته:

ـ حسن يقرئك السلام.

ـ هو بخير؟

ـ لم يشأ أن يترك الشيخ برهان الدين وحده.

ـ وما الأخبار هناك؟

ـ قتلوا وزيرهم وجاءوا يمسحون دمه في أثوابنا.

دنت الغزالة لتسمع معه الأخبار.. لمعت عيناها عندما سمعت أن مواويل علاء الدين تعيش في الوجدان العام. واستخفها الطرب عندما سمعت أن الجعبري اختفى في القاهرة التي أصبحت كلها مسجده.. الآن يظهر فجأة بكلماته البركانية فيضع الإنسان ـ جوهر القضية ـ في مواجهة انحطاط الهمم وسيطرة الجمود وكل الفساد القابض على عنق الحياة، ثم تواريه عن أعين السلطة الجاهدة في الوثوب علىه قلوب الناس.

الآن تنشد القاهرة مواويلها.

الآن تنفث القاهرة حممها.

الآن تغلي القاهرة، تخرج أثقالها، تزلزل زلزالها.

(٣٠)

في الليلة التالية أيقظت علاء الدين من نومه ركلة مؤلمة في جنبه أنهضته جاثيا على ركبتيه، وكأن الغزالة وثبت في حركة هروب، وكأن الشيخ الجليل يبزغ رأسه من داخل الحرام ويتأمل معه الأجناد الذين تطاولت قاماتهم تحت قبة الليل.

ـ انهض معنا يا ولد.

ـ ألا أودع صديقي قبل أن أتبعكم صاغرا؟

ـ هذا الشيخ المضحك؟.. هل يسرك أن نقوده هو الآخر من قفاه حتى لا تحرم من صحبته؟

ـ لا أحسب أن هذا يكون.

ـ من يمنعنا؟.. اضمحلال قواه أم طول لسانك؟

قال علاء الدين بعد نظرة في عيني السهروردي:

لحظة قصيرة ثم أذهب معكم.

تلفت أحد الجنديين حوله:

ـ أين الغزالة التي كانت هنا وقت وصولنا؟

ـ خافت ولها العذر، فهذه أول مرة يقع فيها بصرها على حكام.

ـ إنها وجبة عشاء طيبة.

ـ لا أحسن أن هذا يكون.

ـ بل اذهب وراءها وجئنا بها، فإن لنا علىك حق الطريق.

قال السهروردي ضاحكا:

ـ اسمع كلام الحكام يا علاء الدين، ولا تنس أن تحتطب ما يكفي لإ نضاجها.

ـ نعم، وإلى أن تفرغ هؤلاء النسوة من هذه المهمة دع لنا هذا الشيخ يفسر لنا كيف يمكن أن يعيش في هذه المفازة إنسان به ذرة من عقل، ونتسلى نحن بنتف لحيته.

من كل صوب تدفق نحوهم فتيان كأن كثبان الرمال انشقت عنهم بإشارة سهروردية، وغزلان كثيرة منقضة يقودها غزال كبير جميل تتواثب في حماه غزالة السهروردي الذي جلجلت ضحكته ملء الآفاق:

ـ قد رأينا أن غزالة واحدة لا تكفي لعشاء أمثالكم من أهل الحل والربط.

نطق الذهول في الوجه العكر:

ـ ما هذه الكتائب؟!

والسهروردي يضحك ويضحك بينما حلقة الفتيان والغزلان تضيق وتضيق، ويقصد الحجر الكبير وعصاه في يده فيعتليه، ولا تزال تترامى على الرمال أصداء ضحكاته الرنانة.

تبادل الأجناد كلمات مضطربة:

ـ هل هذا معقول.

ـ غزلان تدخل في صدام.

ـ اجعل طويل اللسان قيد بصرك حتى لا يفلت.

ـ إنها تنصب علىنا في حصار محكم كما لو كانت جيشا له عقل.
ـ نتلقاها بحد السيف.
لا تلبث أن تفر خائفة.
ـ اثبتوا، الفتيان بغير سلاح.
وأمام المشهد الخارق حدَّث علاء الدين نفسه:
ـ لكن هذه الكائنات الجميلة.
في انتشارها وتجمعها وترابطها وعنادها كلمات حية!
وتدفق من وجدانه مطلع موال جديد:
«مجدافي شوق مجدول»
«وطريقي موج موصول»
«لا حا أكسر الأرغول»
«ولاحا بطل أقول!»
وضحك كل شيء مع السهروردي، علاء الدين والرمال، والغزالة، ونبتة الصبار، والنجوم، وقلب الحجر!!